جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى

العدد (١٤٨)



الإصلاح الدينى فى القرن العشرين

«الإمام المراغى نموذجاً»

أ. د. محمد عمارة

القاهرة
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى

الإصلاح الدينى فى القرن العشرين

«الإمام المراغى نموذجاً»

أ.د. محمد عمارة

العدد (١٤٨)

القاهرة
شوال ١٤٢٨هـ - أكتوبر - نوفمبر ٢٠٠٧م


يشرف على إصدارها
الدكتور/ محمود حمدى زقزوق
وزير الأوقاف
ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
الدكتور/ عبدالصبور مرزوق
نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ ١ ـ
بطاقة حياة

ـ الشيخ المراغى .. هو محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغى [١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ / ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م] ـ نسبة إلى " مراغة " ، مركز " جرجا " محافظة " سوهاج " بصعيد مصر ..

ـ ولد فى ٧ ربيع الثانى سنة ١٢٩٨هـ / ٩ مارس سنة ١٨٨١م ..

ـ وقد وجهه والده ـ الذى كان على قدر من العلم والثقافة ـ إلى حفظ القرآن الكريم .. ولقنه نصيباً من المعارف الدينية العامة ..

ولنجابته بعث به والده لطلب العلم فى الأزهر الشريف ـ بالقاهرة ـ فتلقى العلم على كوكبة من علمائه .. وتأثر بعلماء التيار المجدد ـ ومنهم شيخه الشاب على الصالحى .. الذى درس المراغى عليه علوم العربية ، وتأثر بأسلوبه فى البيان والتعبير ..

ـ فلما كان اتصاله بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] كانت النقلة النوعية التى حددت مكانته العلمية ومستقبله فى مدرسة الإحياء والتجديد والإصلاح .. فلقد تتلمذ على محاضرات الأستاذ الإمام فى التفسير للقرآن الكريم .. وفى التوحيد وتنقية العقائد الإسلامية من " شغب " المتكلمين القدماء .. وفى البلاغة التى

وصلت العربية الحديثة بعصر الازدهار ، متخطية عصور الجمود والركاكة والانحطاط ..

ـ وفى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٢هـ ـ ٢٧ مايو ١٩٠٤م ـ تقدم الشيخ المراغى لامتحان " العالمية " وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ـ وكان أصغر أقرانه سناً ـ وكان يومئذ مريضاً بالحمى ، فنال شهادة " العالمية " بتقدير " الدرجة الثانية " ـ مثل أستاذه محمد عبده ! .. وذلك لأن الطلاب السالكين طريق التجديد لم يكونوا ـ فى ذلك الحين ـ يحظون بالرضا من قبل شيوخ الأزهر ، الذين كانت تغلب عليهم المحافظة والتقليد ! ..

ـ وكما كان محمد عبده أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٩٨م] موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام ـ وكان المهندس الأول لفكر مدرسة الإحياء والتجديد ، وأبرز زعماء الإصلاح الدينى .. كذلك كان الشيخ المراغى أنجب تلاميذ الأستاذ الإمام ، وحامل لواء مشروع الإصلاح الدينى الذى صاغته هذه المدرسة ، لتخرج به الأمة الإسلامية من بين شقى رحى وهى " التخلف الموروث " و " التغريب " الزاحف على العقل المسلم فى ركاب الاستعمار الغربى ، والذى يتمدد فى الفراغ الثقافى الذى صنعه الجمود والتفكير ..

ـ ولقد عمل الشيخ المراغى ـ عقب تخرجه ـ بالتدريس فى الأزهر بضعة أشهر ، لفت فيها الأنظار ، حتى لقد التفت حوله حشود من الطلاب ..

ـ وبعد عام من تخرجه ، رشحه الشيخ محمد عبده ليعمل قاضياً بالسودان ـ الذى كان تحت الحكم الثنائى : الإنجليزى والمصرى .. ولقد كتب عن لقائه بأستاذه الإمام محمد عبده لوداعه ليلة سفره إلى السودان سطوراً تفصح عن نضجه العلمى المبكر وتشى بملامح عبقرية إسلامية فى طريقها إلى التألق والنبوغ .. كتب فقال : " ذهبت لوداع الشيخ محمد عبده ليلة سفرى إلى السودان لتولى قضاء مديرية دنقلة فى نوفمبر سنة ١٩٠٤م ، فسألنى :

ـ هل معك رفقاء السفر ؟

فقلت : نعم ، بعض كتب آنس إليها ، وأستديم بها اتصالى بالعلم .

ـ فقال : أو معك كتاب الإحياء (إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ؟) .

ـ فقلت : نعم .

ـ فقال : هذا الكتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفراً طويلاً دون أن يكون رفيقه " .

ثم يستطرد الشيخ المراغى متحدثاً عن مكانة الإمام الغزالى فى فكره .. ومكانته من فلاسفة الإسلام فيقول :

" إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه التفكير إلى ما امتازوا به من العلم وشعب المعرفة .

فإذا ذكر ابـــن سـينا [٣٧٠ ــ ٤٢٨هــــ / ٩٨٠ ــ ١٠٣٧م] أو الفــارابى [٢٦٠ ــ ٣٣٩هـــ / ٨٧٤ ــ ٩٥٠م] ، خطــر بالبـــال فيلسوف عظيم من فلاسفة الإسلام ..

وإذا ذكر ابن عربى [٥٦٠ ــ ٦٣٨ هـــ / ١١٦٥ ــ ١٢٤٠م] خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطرها .

وإذا ذكر البخارى [١٩٤ ــ ٢٥٦ هـ / ٨١٠ ــ ٨٧٠م] ومسلم [٢٠٦ ــ ٢٦٠ هـ / ٨٢٠ ــ ٨٧٥م] وأحمد [١٦٤ ــ ٢٤١ هــ / ٧٨٠ ــ ٨٥٥م] خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فـــى الحفــظ والصــدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال .

أما إذا ذكر الغزالى [٤٥٠ ــ ٥٠٥ هــ / ١٠٥٨ ــ ١١١١م] ، فقد تشعبت النواحى ، ولم يخطر بالبال رجل واحد ، بــل خطــر بالبـال رجال متعددون ، لكل واحد منهم قدرته وخطره . يخطر بالبـــال الغزالــى الأصولى الحاذق الماهر ، والغزالى الفقيه الحر ، والغزالى المتكلم إمــام السنة وحامى حماها ، والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العلم وخفيـات الضمائر ، ومكنونات القلوب ، والغزالى الفيلسوف الذى ناهض الفلســفة وكشف عما فيها من زخرف وزيــف ، والغزالــى المربــى ، والغزالــى الصوفى الزاهد .

وإن شئت فقل : إنه يخطر بالبال رجل هو (دائرة معارف) عصره ، ورجل متعطش إلى معرفة كل شئ عنهم إلى جميع فروع المعرفة .. "[1] .

هكذا كتب الشيخ المراغى عن الفكر الإسلامى وأعلام هذا الفكر ــ فى هذه السن المبكرة ــ هذه السطور التى تحدد مكانته من العلم الإسلامى .. ومن تقدير العلماء ..

ــ وفى السودان ، عمل الشيخ المراغى قاضياً لمديرية " دنقلة " .. ثم انتقل قاضياً " للخرطوم " .. واتصلت ــ من السودان ــ مراسلاته مع شيخه الأستاذ الإمام ، الذى ظل المراغى وفيا له ولمذهبه فى الإصلاح الدينى ، حتى لقد أرجع إليه كل ما قدم فى هذا الميدان .. فقال عنه ــ يوم عودته المظفرة إلى مشيخة الأزهر ــ فى ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ ــ يونيه سنة ١٩٣٥م : " إنه هو المصباح الذى اهتدى به " .. ووصف منزله بأنه " كان محط الرغائب ، وأمل كل طالب " .

ــ وفى سنة ١٣٢٥هـ ، سنة ١٩٠٧م استقال الشيخ المراغى من منصب القاضى بالسودان ــ لخلاف بينه وبين قاضى القضاة والسكرتير القضائى ــ مستر كارتر ــ وهو إنجليزى ــ حول اختيار المفتشين بالمحاكم الشرعية السودانية .. وحول التمييز الإنجليزى بين القضاة الإنجليز وبين القضاة المصريين .. فلقد كان مرتب القاضى الإنجليزى

---

(١) على عبد العظيم [مشيخة الأزهر] ج٢ ،ص١٢، ١٣،طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ سنة ١٩٧٩م .

خمسون جنيها ، بينما كان مرتب القاضى المصرى أربعة عشر جنيها .. فلما قرر المفتش القضائى الإنجليزى للقضاة المصريين " علاوة " قدرها ستة جنيهات ، رفضها الشيخ المراغى .. ودار بينه وبين المفتش الإنجليزى هذا الحوار :

ــ كارتر : إنى لأعجب لقاض شرعى يرفض ستة جنيهات علاوة فى الشهر !

ــ الشيخ المراغى : إن عجبى مثل عجبك ! من أن القاضى الإنجليزى يتناول ٥٠ جنيها ، بينما تستكثر على القاضى الشرعى ٢٠ جنيها ! .

وطلب الشيخ إجازة ثلاثة أشهر .. وعاد إلى مصر .. واستقال .. ورفض العودة إلى السودان رغم إلحاح السكرتير الإنجليزى عليه فى العودة ..

ــ وفى غرة شعبان سنة ١٣٢٥هـ ــ ٩ سبتمبر سنة ١٩٠٧م ــ عين الشيخ المراغى مفتشا للدروس الدينية بديوان عموم الأوقاف (نظارة الأوقاف) .. ولقد جمع بين هذه الوظيفة وبين العمل الذى يهواه ، وهو التدريس بالجامع الأزهر ..

ــ وإبان عمله مفتشا للدروس الدينية بنظارة الأوقاف ، صحب الخديوى عباس حلمى الثانى [١٢٩١ ــ ١٣٦٣هـ / ١٨٧٤ ــ ١٩٤٤م] لصلاة الجمعة بأحد المساجد .. وكان الخطيب كفيفا وهو العلامة الشيخ يوسف الدجوى [١٢٨٧ ــ ١٣٦٥هـ / ١٨٧٠ ــ ١٩٤٦م] فاستنكف الخديوى أن يكون الخطيب والإمام أعمى ! .. فأجابه الشيخ المراغى :

ـ إن الإسلام لا يشترط أن يكون الإمام أعمى أو بصيراً .. فخرج الخديوى من المسجد غاضباً ! ..

ـ وفى سنة ١٣٢٦هـ ، سنة ١٩٠٨م طلب " سلاطين باشا " [١٨٥٧ ـ ١٩٣٢م] ـ وكيل حكومة السودان بمصر ـ من الشيخ المراغى أن يعود إلى السودان قاضياً للقضاة .. فقال له الشيخ :

ـ إن حكومة السودان ـ الإنجليزية ـ أبت علىّ فى العام الماضى وظيفة مفتش بالمحاكم الشرعية ، فكيف ترضى اليوم أن أكون قاضياً للقضاة ؟! ..

فأجابه " سلاطين باشا " :

إن الحكومة اقتنعت اليوم بما لم تكن تقتنع به ، وإنى أريد أن أعرف الشروط التى تجعلها أساساً لقبول هذا المنصب الخطير ؟ .

فاشترط الشيخ المراغى أن يصدر مرسوم تعيينه من الخديوى ـ حاكم مصر المسلم ـ وليس من الإنجليز ـ لما فى ذلك من دلالة سياسية فى علاقة السودان بمصر ـ ودلالات شرعية ، تؤكد على اختصاص الحاكم المسلم بالولايات الشرعية فى بلاد الإسلام ..

ولقد أصر على شرطه هذا ، حتى استجابت له الحكومة الإنجليزية فصدر قرار تعيينه قاضياً لقضاة السودان فى ٣ رجب سنة ١٣٢٦هـ ـ أول أغسطس سنة ١٩٠٨م من الخديوى ـ وليس من الإنجليز ..

ـ وفى السودان أصر الشيخ المراغى على أن يختار هو ـ وليس السكرتير الإنجليزى ـ المذاهب والآراء والاجتهادات الفقهية التى يحكم بموجبها القضاة .. وكانت تلك بدايات إنجازاته فى إصلاح القضاء

الشرعي بالسودان .. وفيه كان أستاذاً ومعلماً ومرشداً للقضاة .. كما عمل على تكوين جيل من القضاة السودانيين ، فأشرف على القسم الشرعي بكلية " غوردون " وزوده بأساتذة من العلماء المصريين الممتازين – من الأزهر ودار العلوم – فكان – بذلك – المؤسس الحقيقي للقضاء الشرعي السوداني الحديث ..

– وفي السودان تعلم الشيخ المراغي اللغة الإنجليزية ..

– وإبان ثورة الشعب المصري ضد الاحتلال الإنجليزي ، طلباً للاستقلال ، سنة ١٣٣٧ هـ ، سنة ١٩١٩م ، قاد الشيخ المراغي المصريين بالسودان في حملة لمناصرة الثورة الوطنية ، ولإعانة ضحاياها .. فأصدروا نشرة عنوانها : "اكتتاب لمنكوبي الثورة بمصر " كانت بمثابة صوت الثورة المصرية في السودان ، وصوت التضامن السوداني مع الثورة المصرية ..

ولقد اتهمه الإنجليز " بإعلان الثورة في السودان " .. وطلب منه المستر " دن " – نائب الحاكم العام للسودان – إيقاف هذا النشاط .. فرفض .. فلما قال له المستر " دن " :

– إني أكلمك كرئيس ..

رد عليه الشيخ – غاضباً – :

– كنت أفهم أنك تعلم واجبك ! إنه ليس لي رئيس هنا ، فإن الحاكم العام معين بأمر ملكي ، وهو الحاكم السياسي ، وأنا معين بأمر ملكي ، وأنا قاضي القضاة ، ولا إشراف لأحد منا على الآخر ..

ولقد علق الحاكم العام على موقف الشيخ المراغي هذا بقوله :

ـ لقد قلت للإنجليز ـ هنا وفى لنـــدن ـ : إن الشـــيخ المراغـــى لا يمكن مناقشته أو التغلب عليه ، ومن الصعـــب إقناعـــه .. إن الشـــيخ المراغى يُعد من دهاة العالم !

ولقد كتبت صحيفة " التيمس " ـ الإنجليزية ـ إبان ذلـــك تقـــول : " ابعدوا هذا الرجل ، فإنه أخطر على بلادنا وحياتنا من ويلات الحرب ! " .

ـ ولقد مضى الشيخ المراغى فى قيادة النشاط الوطنـــى والثـــورى المناصر لثورة سنة ١٩١٩م .. فقاد ـ بالسودان ـ مظـــاهرة كبيـرة .. وأخذ يجمع التوقيعات ـ من المصريين والسودانيين ـ تأييداً لزعامة سـعد زغلول باشـــا [١٢٧٣ ـ ١٣٤٦هـــ / ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م] للثـــورة ، وتوكيلا له ولصحبه فى المطالبة بالاستقلال ..

ـ ولقد تصاعد غضب الإنجليز على الشيخ المراغـــى .. فـــاقترح البعض سجنه .. واقترح البعض اعتقاله ونفيه .. ولكـــن الحـــاكم العـــام للسودان خشى غضبة الشعب السودانى .. فقرر منحه إجازة عاجلة غـــير محدودة .. فعاد إلى مصر .. وانتهى عمله بالسودان سنة ١٩١٩م ..

ـ ولقد كانت شجاعة الشيخ المراغى فى الحق نموذجاً يعيـــد إلـــى الذاكرة المثل العليا التى تحدث فى التـــاريخ العظيـــم لعظمـــاء علمـــاء الإسلام ..

فإبان توليه للقضاء ـ بمصر ـ حاول أحد الأثرياء التـــأثير علـــى ضميره القضائى ، لقاء مبالغ مالية ضخمة ، يسيل لها اللعاب ! .. فـــأبى ضميره مخالفة الحق والعدل .. فاستأجر هذا الثرى مجرما لقتل الشيخ ! .. فألقى عليه ماء النار .. لكن الله لطف .. فأصابت عنقه وأجزاء من جســـمه

.. ولم تكن ــ مع ذلك ــ لعدالة الشيخ قناة " عرفت هذه القضية باسم " قضية مصرى مكاكيني " ..

ــ ولقد كانت الحكومات المصرية ــ خضوعاً للاستعمار الإنجليزى ــ قد حرّمت على مشيخة الأزهر التدخل فى السياسات العامة خصوصاً ما يمس منها مصالح الدولة المستعمرة .. لكن الشيخ المراغى رفض هذا الخضوع ..

وعلى حين صمت رؤساء الوزارات المصرية ، وجمهور الساسة والنخبة السياسية وزعماء الأحزاب عن التصدى للمخطط الصهيونى المتحالف مع الاستعمار الإنجليزى لاغتصاب أرض فلسطين ومقدسات المسلمين فى القدس الشريف .. جهر الشيخ المراغى ــ من موقعه كشيخ للأزهر سنة ١٩٢٩م بالرأى الإسلامى والوطنى فى هذا المخطط الاستعمارى الصهيونى .. فكانت سابقة تحدث عنها الشيخ رشيد رضا [١٢٨٢ ــ ١٣٥٤ هـ / ١٨٦٥ ــ ١٩٣٥م] ــ إبان حملته على المخطط الصهيونى ــ فقال : "

هذه أول مرة يصرح فيها شيخ الأزهر ورئيس المعاهد الدينية فى مصر بالعطف على المسلمين فى أثناء ثورة سياسية [1] بينهم وبين شعب أجنبى تؤيده الدولة البريطانية ، بعد أن أجرت السلطة المصرية ألسنة علماء الأزهر ــ [قيدت ألسنتهم !] ــ وألجمتهم ، وحرمت عليهم ما هو مباح لجميع المصريين من إبداء رأيهم فى الأمور السياسية . وقد

---

(١) هى ثورة البراق ــ فى فلسطين ــ سنة ١٩٢٩م .

ـــ وإبان الحرب العالمية الثانية [١٩٣٩ م ـــ ١٩٤٥م] أعلن الشيخ المراغي كلمته المدوية ـــ في خطبة الجمعة .. من فوق منبر مسجد الرفاعي ـــ فقال :

ـــ " نسأل الله أن يجنبنا ويلات حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل " ! .. وكان بذلك يعارض سعي انجلترا لإدخال مصر مع الحلفاء في الحرب ضد المحور ..

ولقد أحدثت كلماته هذه هزة سياسية كبرى في الدوائر الاستعمارية الإنجليزية .. التي ضغطت على رئيس الوزراء المصري كي يطلب من شيخ الأزهر العدول عن موقفه .. فاتصل رئيس الوزراء بالشيخ .. وأحس الشيخ بنبرة التهديد في لهجته .. فانتفض الشيخ .. وقال لرئيس الوزراء :

ـــ " مثلك يهدد شيخ الأزهر ؟! وشيخ الأزهر أقوى بمركزه ونفوذه بين المسلمين من رئيس الحكومة . ولو شئت لارتقيت منبر مسجد الحسين وأثرت عليك الرأي العام ، ولو فعلت لوجدت نفسك على الفور بين عامة الشعب " ! [1] .

ـــ وكما كان الإمام محمد عبده مثلا أعلى في شموخ العلم والعلماء أمام الحكام .. يقول عنه الخديوي عباس حلمي الثاني : " إنه يدخل علي كفرعون ! " .. ويداعبه أستاذه جمال الدين الأفغاني ، فيقول له : " قل لي .. ابن أي ملك من الملوك أنت ؟! " .. كذلك كان شموخ المراغي أمام الحكام والكبراء ..

---

(١) [مشيخة الأزهر] ، ج٢ ، ص٣٦ .

زاره يوماً حاكم الأقاليم ببلدته " المراغة " فحياه الشيخ التحية المناسبة .. ثم دخل عليه قارئ للقرآن ، فحياه واحتفى به أكثر من حفاوته بالحاكم ! .. فلما انصرف الحاكم ، سُئل الشيخ عن علة هذا التفريق في المعاملة ؟ .. فقال :

ـ " إن الحاكم قد أقبل وفي رأسه أنه حاكم ! " ..

وزاره يوماً ـ في مكتبه ـ أحد رؤساء الوزارة ، فلما انصرف ودعه الشيخ إلى باب الغرفة فقط ، فلما سئل : لماذا لم ترافق رئيس الوزراء إلى خارج المكتب ؟ .. قال :

ـ " في هذا الكفاية ! " ..

وفي إحدى الحفلات الرسمية ، وبحضور الملك فاروق الأول [١٣٣٨ ـ ١٣٨٤هـ / ١٩٢٠ ـ ١٩٦٥م] لاحظ الشيخ المراغي أن أماكن العلماء قد حددت خلف مقاعد بعض أعضاء مجلس النواب والشيوخ .. فغضب الشيخ، وأشار إلى رئيس الديوان الملكي فحضر إليه ، فقال له :

ـ إذا لم يتغير هذا النظام فلن أبقى هنا ! ..

فأخبر رئيس الديوان الملك بالأمر ، فقال له الملك :

ـ أخبر الشيخ المراغي أنني مستعد لتغيير هذا الوضع فيما بعد ، وهو يثق بوعدي .

فلما أخبر رئيس الديوان الشيخ بما قاله الملك ، قال له :

ـ إنني واثق بوعده ، ولكنني لا أستطيع البقاء إلا إذا عدل هذا النظام ، والحل سهل ، فمجلس الوزراء موجود في الحضرة الملكية ..

وتم إصدار القرار في المجلس نفسه ، وأعيد وضع العلماء في مقدمة المجلس ! ..

ـ ومع هذا الشموخ ـ في الحق ـ والكبرياء المشروع أمام المستكبرين وأعداء الحق .. كان الشيخ المراغي متواضعاً .. يضرب المثل بنفسه في المحاسبة ونقد الذات ..

سأله أحد الصحفيين :

ـ ما هي عيوبنا ؟

ـ فقال الشيخ : إنها كثيرة . ولكن لماذا تسألني عن عيوب الناس ؟ سلني عن عيوبي أنا فإنني وأنا في هذه السن المتقدمة [سنة ١٩٤١م] ـ وبما أنا عليه من ضعف الصحة ـ أقبل عملاً من الأعمال العامة ، وكان يجب أن أتركه لشباب يستطيع تحمل أعبائه أكثر مما أستطيع أنا وهذا عيب كثيرين لا يتركون أماكنهم لمن هم أصلح منهم ، ولو أن كل واحد منا ترك مكانه لمن هو أجدر به لأصبحنا في خير وفي خير عظيم . أما بقية عيوبي فإن الله يعرفها ، وأسأله تعالى أن يغفرها لي ! " .

ـ وقبيل وفاته بأيام ، أصيب "بانفلونزا" خفيفة " فدخل مستشفى المواساة ـ بالإسكندرية ـ في رمضان سنة ١٣٦٤هـ ـ أغسطس سنة ١٩٤٥م .

ومع العلاج ، عكف على تفسير سورة القدر ، ليلقي عنها حديثاً في ليلة القدر .. وكانت الممرضة تشفق عليه من الجهد .. وتطلب منه أن يستريح .. فرفض ، وعكف على كتابة التفسير ..

ولكن زيارة الملك فاروق له ــ بالمستشفى ــ قد أحدثت انقلابا فــى حالته الصحية .. كان الملك قد طلق زوجه الملكة " فريدة " . فطلب مــن الشيخ المراغى أن يفتى بتحريم زواجها من أحد غيره ! .. فرفض الشــيخ الاستجابة لطلب الملك .. وضاق الملك ذرعا بهذا الرفض .. واحتدم بينهما النقاش .. فقال المراغى للملك :

ــ " أما الطلاق فلا أرضاه ، وأما التحريم فلا أملكه " .

ثم صاح بأعلى صوته :

ــ " إن المراغى لا يستطيع أن يحرّم ما أحل الله ! " .

وعقب هذا اللقاء العاصف ساءت صحة الشيخ .. فانتقل إلى رحــاب ربه ــ شهيدا من شهداء الحق ــ فى ١٤ رمضان ســـنة ١٣٦٤هــــ ٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٥م ــ .. عليه رحمة الله ..

ــ ومع أن الشيخ المراغى قد احـــترف صناعـــة الإصـــلاح أكــثر مما احترف صناعة التأليف .. وأنجز فى ميدان تربية العلماء أعظم ممـــا أنجز فى تسطير الكتب .. إلا أنه قد ترك من الكتب والرسائل والمقـــالات والأحاديث والأحكام القضائية ومذكرات مشاريع الإصلاح ما يتظر الجمع فى [أعماله الكاملة] التى ستثرى فكر الاجتهاد والتجديد والإصلاح الدينى على نحو أكيد ..

لقد خلف لنا ــ غير المقـــالات والأحـــاديث والأحكـــام القضائيـــة ومذكرات المشاريع الإصلاحية ــ :

١ــ (الأولياء والمحجورون) ــ وهو بحث فقهى ، نال به عضوية " هيئة كبار العلماء " ــ مخطوط بمكتبة الأزهر ــ .

٢ـ (تفسير جزء تبارك) جعله امتداداً لتفسير أستاذه الشيخ محمد عبده لتفسير جزء عم وهو مخطوط ـ .

٣ـ بحث في وجوب ترجمة القرآن الكريم ـ طبع بمطبعة الرغائب سنة ١٩٣٦م .

٤ـ (رسالة الزمالة الإنسانية) ـ كتبها لمؤتمر الأديان ـ بلندن سنة ١٩٣٦م ـ وطبعت بمطبعة الرغائب سنة ١٩٣٦م .. ونشرت بمجلة الأزهر ـ عدد جمادى الأولى سنة ١٣٥٥هـ ـ يوليو سنة ١٩٣٦م .

٥ـ بحوث في التشريع الإسلامي وأسانيد قانون الزواج ـ رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩م ـ طبعت بالقاهرة .

٦ـ مباحث لغوية بلاغية ـ كتبها أثناء تدريسه لكتاب [التحرير في الأصول] ـ مخطوطة .

٧ـ الدروس الدينية ـ وهي تفسير لبعض السور والآيات القرآنية ألقاها في مناسبات عامة ـ وقد نشرت بمجلة الأزهر .. أو في كتيبات مستقلة ..

٨ـ مقالات وخطب عديدة .. كتبت وألقيت في مناسبات مختلفة .. وجمعت نماذج منها في نهاية كتاب (الشيخ المراغي بأقلام الكتاب) . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧م .. [١] .

---

(١) انظر في وقائع هذه الحياة [مشيخة الأزهر ج٢ ، ص١١ ـ ٤٣ .

ـ ٢ ـ
فى الإصلاح القضائى والتشريعى

فى مصر .. وبعد عودة الشيخ المراغى إليها من السودان سنة ١٩١٩ م .. كان الإصلاح القضائى والتشريعى من أهم الميادين التى أولاها عنايته .. كما كان هذا الميدان امتدادا لما قام به فى السودان .. مع التوسع والشمول الذى يقتضيه الواقع فى مصر ..

وفى هذا الميدان من ميادين الإصلاح ـ القضائى والتشريعى ـ مارس الشيخ المراغى العمل الإصلاحى من موقع " الخبير " .. فقد تولى ـ فى هذا الميدان ـ من المناصب الرفيعة :

١ـ رئيس التفتيش الشرعى بوزارة الحقانية ـ [العدل] ـ فى ٩ أكتوبر ١٩١٩ م ـ محرم ١٣٣٨ هـ ..

٢ـ ورئيس محكمة مصر الكلية فى ١٥ ذى القعدة ١٣٣٨ هـ ـ ٢١ يوليو ١٩٢٠ م ..

٣ـ وعضو المحكمة العليا الشرعية فى ١٧ جماد أول ١٣٣٩ هـ ـ ٢٧ يناير ١٩٢١ م ..

٤ـ ورئيس المحكمة العليا الشرعية فى ٢ جماد أول ١٣٤٢ هـ ـ ١١ ديسمبر ١٩٢٣ م ..

وإبان توليه لهذه المناصب القضائية ـ على امتداد نحو عشر سنوات ـ امتدت إصلاحاته إلى ميادين التشريع والتقنين للفقه الإسلامى .. وتطبيق

دعوة أستاذه الإمام محمد عبده إلى الاستفادة ــ فى التشريع والتقنين ــ من مجمل التراث الفقهى الإسلامى ، على اختلاف مذاهبه .. وليس فقط المذهب الحنفى ،كما كان الحال فى الدولة العثمانية وولاياتها ومنها مصر ..

ولقد قال الشيخ المراغى للجنة تنظيم الأحوال الشخصية ــ التى رأسها :ــ

ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان . وأنا لا يعوزنى بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم .

إن الشريعة الإسلامية فيها من السماحة والتوسعة ما يجعلنا نجد فى تفريعاتها وأحكامها فى القضايا المدنية والجنائية كل ما يفيدنا وينفعنا فى كل وقت ، وما يوافق رغباتنا وحاجاتنا وتقدمنا فى كل حين . ونحن فى ذلك كله ملازمون لحدود شريعتنا .

ولكن فريقا من متأخرى العلماء رأوا أن كل ماجاء فى كتب الفقه من المتون والحواشى والآراء المصيبة والمخطئة كل ذلك من الدين ومن أصوله التى يجب أن نتمسك بها ولا نحيد عنها ، وهم مخطئون فى هذا الفهم ، إذ أن من ينظر فى كتب الشريعة الأصلية بعين البصر والحذق ، يجد من غير المعقول أن نضع قانونا أو كتابا أو مبدأ فى القرن الثانى عشر من الهجرة ثم نجئ بعد ذلك فنطبق هذا القانون أو المبدأ ١٣٤٥هـ .

وإن من ينظر فى أقوال الأئمة من مذهب أبى حنيفة وما وقع بينه وبين أصحابه محمد ، وزفر ، وأبى يوسف وبينهم هم ، يجد التجديد فى الأحكام الشرعية ميسوراً لنا ، ويجد بطلان الدوام لأحكام معينة وبقائها حيث يبقى الدهر من الأمور البدهية .

ومعنى هذا أن المسائل الفقهية ما دامت غير قطعية فهى قابلة ، بحكم الشرع ، للتجديد والتغيير .. [1].

هكذا رسم الشيخ منهاج الإصلاح والتجديد فى التشريع والتقنين .. ثم وضع المنهاج فى الممارسة والتطبيق ..

ولقد كان صدور قانون الأحوال الشخصية فى ذى القعدة ١٣٣٨ هـ يوليو ١٩٢٠ م ، أول إنجاز من إنجازات الإصلاح التشريعى التى قادها الشيخ المراغى ووجهها ورعاها فى هذا الميدان .

وتلاه تعديل قانون الطلاق ــ الذى جعل الطلاق الثلاث طلقة واحدة ،

وتلاه إصلاح القوانين الحاكمة لعدة الزوجة التى غاب عنها زوجها .

والقانون الذى يجعل الحفيد ــ الذى مات والده قبل جده ــ مورثاً فى تركة جده .

وهكذا أخذت دعوة الإمام محمد عبده للإصلاح القضائى والتشريعى تعرف طريقها إلى التطبيق على يد أبرز تلاميذ الأستاذ الإمام وأنجبهم .. الذى حمل علم الإصلاح الدينى فى القرن العشرين ..

ــ ولقد كان شعار الشيخ المراغى فى احتضان مجمل تراث المذاهب الفقهية الإسلامية .. والاختيار من بين اجتهاداتها .. وفتح باب

---

(١) المرجع السابق . جـ ٢ ص ١٩ ، ٢٠ .

الاجتهاد فى القضايا والمشكلات المستجدة .. وفى التيسير فى الفتـوى .. كان شعاره كلمة أستاذه الإمام محمد عبده : " العلم هو ما ينفعـك وينفـع الناس " .. ولقد قال المراغى فى هذه المعانى : " .. ومن المعروف لـدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب هذا الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عـن التعصب المذهبى يهدى إلى الحق فى أكثر الأوقات . يجب أن يدرس الفقه دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب ، وأن تـدرس قواعـده مرتبطـة بأصولها فى الأدلة ، وأن تكون الغاية من تلك الدراسة عـدم المسـاس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها " .

والنظر فى الأحكام الاجتهاديـة يجعلـها ملائمـة للعصـور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة . كما كان يفعل السلف من الفقهاء ..

وهناك أمور يجب أن يترفق الفقـهاء فيـها بالنـاس ، وأن يراعوا قواعد اليسر التى هى أخص صفات الإسلام . ولا يوقعوهـم فى الحرج .. " (١) .

ومع احتضان تراث المذاهب الفقهية الإسـلامية المختلفـة .. عمل الشيخ المراغى على التقريب بين مذاهب الطوائف الإسـلامية التى قسمت " مقالاتها الكلامية " جمهور الأمة الإسـلامية .. فكـان بذلك أول المصلحين الذين ارتادوا هذا الميدان فى القرن العشرين ..

---

(١) المرجع السابق . جـ ٢ ص ٢١ .

ففى المحادثات التى دارت بينه ــ كشيخ للأزهر ــ وبين الزعيم الإسماعيلى أغا خان [١٢٩٤ ــ ١٣٧٦ هـ ــ ١٨٧٧ ــ ١٩٥٧ م] ــ فى ١١ فبراير ١٩٣٨ م ــ تم الاتفاق على تكوين هيئة للبحث الدينى ، تستهدف :

١ــ تأكيد روابط الصداقة بين المسلمين فى كافة أنحاء الأرض .

٢ــ إيجاد تضامن بين الهيئات التعليمية فى البلاد الإسلامية يكون من ورائه نشر التعليم على وجه العموم ، ونشر الثقافة الإسلامية على وجه الخصوص .

٣ــ العمل على تبسيط قواعد الدين الإسلامى وتعاليمه .

٤ــ محاولة التوفيق بين المسلمين فيما اختلفت مذاهبهم وفرقهم .. [١] .

هكذا كان الإصلاح القضائى .. والتجديد الفقهى .. والتقنين لقواعد الفقه وأحكامه .. والتقريب بين المذاهب الإسلامية ، أول الميادين التى جاهد فيها الشيخ المراغى ، فأرسى قواعد الإصلاح الدينى فى القرن العشرين ، وهذه الإنجازات الإصلاحية ــ التى طبقها بمصر ــ مضافا إليها ما أنجزه قبلها فى السودان ، قد مثلت الميدان الأول من ميادين الإصلاح الدينى الذى دعا إليه وطبقه هذا الإمام العظيم ..

---

(١) المرجع السابق . جـ ٢ ص ٢١ .

ـ٣ـ

إصلاح الأزهر الشريف

كان حلم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ في حياته ـ وكانت مقاصده العظمى من وراء جهاده الفكرى ـ غير إصلاح مناهج الفكر والنظر .. وتوسيع أبواب الاجتهاد وميادينه .. وتأكيد علاقة الصداقة بين العلم والدين ..وبين الشرع والعقل والسنن الكونية والاجتماعية ـ .. كانت أحلامه ومقاصده : إصلاح المؤسسات التى تصنع العقل المسلم ، وتصوغ وجدان النخبة الإسلامية ، التى علق عليها الآمال فى قيادة الأمة على طريق الإقلاع الحضارى ، وتجاوز المأزق الذى وقعت فيه الأمة بسبب " التخلف الموروث " عن عصور التراجع الحضارى ، وبسبب " الهيمنة الغربية " التى تحرس هذا التخلف وهذه الأمراض الحضارية التى يعانى منها المسلمون .

وكان فى مقدمة هذه المؤسسات التى جاهد محمد عبده لإصلاحها :

١ـ الأزهر الشريف ..

٢ـ والمساجد ..

٣ـ والقضاء الشرعى ..

٤ـ والأوقاف ..

٥ـ والمدارس ..

والمكانة المتميزة التي كان يحتلها الأزهر في العلم الديني ـ بمصر وعلى النطاق الإسلامي ـ بذل الشيخ محمد عبده في سبيل إصلاح الأزهر جهوداً كبيرة .. وتحمل في سبيل ذلك حرباً ضروسا شنها عليه الخديوي عباس حلمي الثاني ، والتيار المحافظ وأهل الجمود والتقليد من شيوخ الأزهر .. ومن وراء هؤلاء جميعا وقف الخبث الاستعماري الإنجليزي ، الذي أوهم الشيخ محمد عبده موافقته على إصلاح الأزهر .. بينما سعى ـ في الحقيقة ـ إلى إفشال هذه الجهود الإصلاحية ، وذلك حتى يظل الفراغ الفكري ـ الذي يصنعه الجمود والتقليد ـ مفتوحة أبوابه أمام الغزو الفكري والتغريب ! ..

وحتى نعلم حاجة الأزهر ـ يومئذ ـ إلى الإصلاح ، يكفي أن نعلم أن الأزهر الذي بدأ حياته العلمية والتعليمية ـ قبل ألف عام ـ بتدريس كل العلوم المدنية والطبيعية ـ بما فيها الطب والتشريح .. وكل الفنون والآداب بما فيها الموسيقى ـ إلى جانب الشريعة وعلومها ، والعربية وعلومها وآدابها .. إن هذا الأزهر قد أصابته الغربة والاغتراب عن أغلب هذه العلوم والفنون .. وحتى علوم الشريعة والعربية ، فإنه قد وقف فيها عند مصنفات عصر التراجع الحضاري الفقيرة في الإبداع ، والغنية في التحشيات والتهميشات والحكاكات اللفظية والمحسنات الشكلية التي تهتم بالعرض على حساب الجوهر وبالشكل على حساب المضمون ..

وفي الحوار الذي يحكيه الجبرتي [١١١٧ ـ ١٢٣٧ هـ ، ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢ م] ـ الذي دار بين الوالي التركي على مصر

" أحمد باشا " المعروف : " بكور وزير " ــ وبيــن شــيخ الأزهــر الشيخ عبد الله الشــبراوى [١٠٩٢ ــ ١١٧١ هــــــ ، ١٦٨١ ــ ١٧٥٧ م] ومعه نخبة من وجوه شيوخ الأزهر ــ ما يفضـــح عــن حال الأزهر وتخلفه عن أغلب العلوم الضرورية للعصر ..

لقد تكلم الوالـــى مـــع هــؤلاء الشــيوخ فــى الرياضيـــات ، فأحجموا ، وقالوا : " لا نعرف هذه العلوم " ! ..

ثم دار بينه وبين الشيخ الشبراوى هذا الحوار :

ــ الوالى : المسموع عندنا بالديار الروميـــة (التركيـــة) أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت فى غاية الشوق إلـــى المجىء إليها ، فلما جئتها وجدتها ــ كما قيل ــ : (تسمع بـــالمعيدى خــير من أن تراه) .

ــ شيخ الأزهر : هى ــ يا مولانا ــ كمـــا ســمعتم ، معــدن العلوم والمعارف .

ــ الوالى : وأين هى ؟! وأنتم أعظم علمائها ،وقد سـألتكم عــن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئا . وغايـــة تحصيلكــم : الفقه ، والمعقول ، والوسائل ، ونبذتم المقاصد !

شيخ الأزهر : نحن لســـنا أعظــم علمائــها ، وإنمـــا نحــن المتصـــدرون لخدمتهم وقضـــاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكــام . وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقــدر الحاجة إلى علم الفرائض والمواريث .

الوالى : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة ، كالعلم بدخول الوقت ، واستقبال القبلة ، وأوقات الصوم والأهلة ، وغير ذلك ..

شيخ الأزهر : نعم ، معرفة ذلك من فروض الكفاية ، إذا قام بها البعض سقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقة الطبيعة ، وحسن الوضع ، والخط ، والرسم والتشكيل ، والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك ، غالبهم فقراء ، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق ، فيندر فيهم القابلية لذلك .. "[1].

هكذا تحدث شيخ الأزهر عن حال أهله ، فوصفهم بأنهم أخلاط يندر فيهم القابلية لهذه العلوم " الضرورية لأي مجتمع من المجتمعات ! ..

ـ فلما جاء محمد علي باشا [١١٨٤ ـ ١٢٦٥ هـ ، ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩ م] ليبني مصر الحديثة .. وقف شيوخ الأزهر دون أن يمتد التجديد والإصلاح إلى داخل هذا الجامع العتيق والعتيد .. فتركه محمد علي كما هو .. وأنشأ التعليم المدني .. وأرسل البعثات العلمية إلى

---

(١) الجبرتي [عجائب الآثار في التراجم والأخبار] المجلد الأول ص ٢٧٦ . طبعة دار فارس ـ بيروت . و د . جمال الدين الشيال [رفاعة رافع الطهطاوي] ص ٩ ـ ١١ . طبعة القاهرة ١٩٧٠ م .

أوروبا .. واستفاد فى ذلك من نبهاء طلاب الأزهر وخريجيه .. ولكن دون أن تمتد يد الإصلاح والتجديد إلى مناهج هذا الأزهر الشريف ! ..

ـ فلما جاء الشيخ محمد عبده .. وجاهد كى يدخل العلوم المدنية الضرورية إلى مناهج التعليم بالأزهر ـ بما فيها الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا ـ التى سماها ، من باب الترغيب ، " تقويم البلدان " ! وقف المشايخ لدعوته بالمرصاد .. حتى غضب .. وأصيب بالإحباط .. فاستقال من المجلس الأعلى للأزهر .. بل ومن منصب الإفتاء .. ومات كمدا ـ فى ٨ جماد أول ١٣٢٣ هـ ـ ١١ يوليو ١٩٠٥ م ..

نعم .. لقد ظل حال الأزهر هكذا حتى ذلك التاريخ .. وبشهادة الشيخ المراغى ١٩٣٥ م .

" .. فمنذ أربعين عاما اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب والهندسة والتاريخ فى الأزهر ، وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين . ومنذ أربعين عاما قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية ـ فى الفلسفة ـ فى داره ، على شرط أن نكتم الأمر ، لئلا يتهمه الناس ويتهمونا بالزيغ والزندقة ! "[1] .

ـ ولقد حاول الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ ، ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م] أن يغرى سعد زغلول باشا [١٢٧٣ ـ ١٣٤٦ هـ ، ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧ م] وهو تلميذ محمد عبده ـ باقتحام هذا الميدان الشائك ،

---

(١) [المنار] جـ ٢ مجلد ٣٥ ص ١٣٩ ـ عدد ٢٩ ربيع الآخر ١٣٥٤ هـ ـ ٣٠ يوليو ١٩٣٥ م .

لتنفيذ مشروع أستاذه في إصلاح الأزهر .. ولكن سعد زغلول ــ وهو زعيم الأمة ــ آثر السلامة ، مخافة اصطدام ذوي الجمود والتقليد المسيطر على هذه المؤسسة العريقة .. وقال للشيخ رشيد :

ــ لا ، لا ، إذا كان شيخنا ــ [الأستاذ الإمام] ــ لم يقدر على إصلاح الأزهر ، فماذا عسى أن أفعل أنا ؟!

ــ فقال له الشيخ رشيد : إنني سمعتك مرارا تقول : إنه لا يرجى نهوض المسلمين إلا بإصلاح ديني ــ وفقا لما كان يقوله شيخنا الأستاذ الإمام ، وأستاذ الجميع حكيمنا السيد جمال الدين ــ وتستدل على ذلك ــ كما كانا يستدلان ــ بأن أوروبة لم تتمكن من النهوض المدني العلمي إلا بعد القيام بالإصلاح الديني ، الذي دعا إليه " لوثر " [١٤٨٣ ــ ١٥٤٦ م] وأقرانه ، إذ ما دام المسلمون يفهمون الإسلام فهما خرافيا ، أو يلبسونه كالفرو مقلوبا ــ كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه ــ فلا يرجى أن يصلح لهم شأن في علم ولا عمل .

ــ فقال سعد باشا : نعم ، لا أزال أرى هذا ، فالترقي المدني مع المحافظة على الإسلام يتوقف على الإصلاح الديني الذي تترك به الخرافات والأوهام .. الخ .

ــ فقال الشيخ رشيد : إذن لابد أن تعمل في سبيل هذا الإصلاح شيئا ، ولديك الأزهر و [المنار] ، فإذا كنت قد يئست من الأزهر فلماذا لا تساعد [المنار] وتنشره في مدارس الحكومة ؟

ـ فقال سعد : الحق معك في [المنار] !... [1].

فسعد زغلول ـ الذي أنشأ مدرسة القضاء الشرعي ١٩٠٧ م. فحقق حلم أستاذه محمد عبده ، لكن خارج مؤسسة الأزهر ! آثر السلامة بالابتعاد عن اقتحام هذا الميدان .. ومن قبله كان ما لاقاه محمد عبده من الصد عن تحقيق الإصلاح في هذا المعهد العتيد .. ومن قبلهما كان موقف محمد على باشا ، الذى بنى مصر الحديثة .. مع إيثار السلامة بالبعد عن اقتحام ميدان الإصلاح للأزهر الشريف ! ..

ـ لكن .. شاء الله أن يتولى الشيخ المراغى مشيخة الأزهر فى ٢ ذى الحجة ١٣٤٦ هـ ــ ٢٢ مايو ١٩٢٨ م .. أي بعد أقل من عام على وفاة سعد زغلول .. فكان الفارس الذى قاد مسيرة الإصلاح لهذا المعهد العتيق .. والذى واجه ــ بشجاعة وإصرار ــ كل التحديات التى وضعت فى طريق هذا الإصلاح .. فأنشأ اللجان لدراسة واقع الأزهر .. ولاقتراح سبل الإصلاح .. وأنشأ التنظيمات الجديدة ، التى تمثلت فى كليات اللغة العربية .. والشريعة .. وأصول الدين .. وأنشأ التخصصات العلمية داخل هذه الكليات .. وأنشأ الدراسات العليا لخريجى هذه الكليات .. وأعلن أن المقاصد من وراء إصلاح هذا المعهد العتيد هى :

١ــ تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة فى المعارف وهدايتها إلى أصول الدين .

٢ــ إحياء التراث العلمى المجيد الذى خلفه لنا كبار علماء المسلمين .

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٧ ، مجلد ٢٩ ، ص ٥٣٩ ــ عدد ٢٩ جماد أول ١٣٤٧ هـ ــ ١٢ نوفمبر ١٩٤٨ م .

٣ـ عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضا صحيحا في ثوب نقي خال من الغواشي المشوهة لجماله .

٤ـ العمل على إزالة الفوارق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها .

وإلى جانب هذا التنظيم للتعليم الجامعي الأزهري ، تم تنظيم التعليم قبل الجامعي ، المعاهد الدينية الابتدائية والثانوية ..

وفوق ذلك ـ ومعه ـ تم التطوير للمناهج الدراسية ، على النحو الذي تجمع فيه بين الأصالة والتجديد ..

ـ كذلك تم إنشاء " لجنة الفتوى بالأزهر " من اثني عشر عالما من كبار العلماء ـ في ١٢ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ ـ ١١ أغسطس ١٩٣٥م .. وتم إنشاء " قسم الوعظ والإرشاد " بالأزهر ـ ١٩٢٨ م .. وأعيد تنظيم " هيئة كبار العلماء " .. وتم إنشاء " مراقبة البحوث الثقافية الإسلامية " ـ في شعبان ١٣٦٤هـ ـ يوليو ١٩٤٥ م .

ـ ولقد كان واضحا ـ ومعلنا ـ أن هذا الإصلاح للأزهر وتعليمه الديني إنما يستهدفان الإصلاح الإسلامي على النطاق العالمي .. وذلك إنطلاقا من عالمية الإسلام .. ووحدة الأمة الإسلامية .. والمكانة التاريخية للأزهر في هذه العالمية .. ودور مصر ـ بلد الأزهر ـ في المحيط الإسلامي الكبير ..

ولقد أشار هذا المشروع الإصلاحي للأزهر إلى هذه المقاصد العالمية في رسالة هذا المعهد العتيد .. فقال :

" إن لدى الأمة قضايا كثيرة معقدة في حاجة إلى الدرس والبحث ، وفي مقدمتها :

١ــ قضية الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الراشدين .

٢ــ قضية التعليم الدينى على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب وأخرجته العقول .

٣ــ حماية الدين من العدوان ، والدعوة إليه كأمر الله .

٤ــ قضية نظام الأمم الإسلامية وارتباط بعضها ببعض ارتباط تعاون وتناصر .

٥ــ قضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتدبير أمورهم بحيث تخفف عليهم أعباء الحياة .

٦ــ مقومات الأمم الإسلامية التى يجب أن يحافظ عليها "..

* والناظر فى هذه " المذكرة " التى كتبها الشيخ المراغى ــ منهاجا لإصلاح الأزهر ــ يدرك أن هذا الإصلاح ــ بنظره ــ إنما كان السبيل لتحقيق عالمية الإسلام ، بتحقيق العالمية للجامعة الإسلامية الأولى ، إصلاحها كى تكون جديرة بتحقيق هذه الرسالة العالمية للإسلام .. ولذلك ، تحدثت هذه " المذكرة " عن أن :

" فى الدين الإسلامى عبادات وعقائد وأخلاق وفقه فى نظم الأسرة وفقه فى المعاملات ، مثل البيع والرهن ، وفقه فى الجنايات . وقد عرض الدين الإسلامى لغيره من الأديان ، وعرض لعقائد لم تكن لأهل الأديان ، وأشار إلى بعض الأمور الكونية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة ، من جماد ونبات وحيوان .

وقد هوجم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السماوية السابقة . وهوجم من أتباع الديانات السابقة ، وهوجم من ناحية العلم ، وهوجم من أهل القانون .

ولهذا كانت مهمة العلماء شاقة جدا ، تتطلب معلومات كثيرة :ـ

ـ تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها .

ـ ومعرفة ما في الأديان السابقة .

ـ ومعرفة ما يجد في الحياة من معارف وآراء .

ـ ومعرفة طرق البحث النظري وطرق الإقناع .

ـ وتتطلب فهم الإسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهما صحيحا .

ـ وتتطلب معرفة اللغة وفقهها وآدابها .

ـ وتتطلب معرفة التاريخ العام وتاريخ الأديان والمذاهب وتاريخ التشريع وأطواره .

ـ وتتطلب العلم بقواعد الاجتماع .

ـ يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة ، وأن تدرس السنة دراسة جيدة ، وأن يفهما على وفق ما تتطلب اللغة العربية فقهها وآدابها من المعاني ، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة ، وأن يبتعد في تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه ، وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة العربية .

ـ يجب أن تهذب العقائد والمعاملات وتنقى مما جد فيها وابتدع ، وأن تهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق وقواعد الإسلام الصحيحة .

ـ يجب أن يدرس الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة ، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ، والأحكام المجمع عليها ، والنظر فى الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة ، كما كان يفعل السلف من الفقهاء .

ـ يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما هو موجود فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الإسلامى ، ليظهر للناس يسره وقدسيته وامتيازه عن غيره فى مواطن الاختلاف .

ـ ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها وأسباب التفرقة وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها .

ـ يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها ،وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة مما يتوقف عليه فهم القرآن فى الآيات التى أشارت إلى ذلك .

ـ يجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طرق التأليف الحديثة ، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة فى عصور الإسلام الزاهرة والطرق الحديثة المعروفة عند علماء التربية .

ـ يجب أن يفعل هذا لإعداد رجال الدين ، لأن رسالة النبى ﷺ عامة ، ودينه عام ، يجب أن يطبق بحيث يلائم العصور المختلفة والأمكنة المختلفة .. " (١) .

هكذا حدد الشيخ المراغى معالم المنهاج الإصلاحى للأزهر الشريف .. حدد المقاصد والوسائل .. انطلاقا من عالمية رسالة هذا المعهد العتيق ، النابعة من عالمية الإسلام الحنيف .. وأكد على ضرورة أن يجمع هذا الإصلاح بين الأصالة وبين التجديد ، إن فى العلوم والمعارف أو فى سبل التأليف والتدريس .. بحيث تتخطى الدراسة فى الأزهر ، ركاكة عصور التراجع الحضارى والفكرى لتجمع بين إبداعات عصور الازدهار الأولى للحضارة الإسلامية وإبداعات الإحياء والتجديد فى نهضتنا الحديثة .. وبعبارته : " يجب أن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة فى عصور الإسلام الزاهرة والطرق الحديثة المعروفة عند علماء التربية " ..

* * *

ولأن الطريق ـ سنة ١٩٢٨ م ـ لم يكن ممهدا أمام الشيخ المراغى لتطبيق هذا المشروع الإصلاحى للأزهر الشريف .. وبسبب من العقبات ،

---

(١) انظر النص الكامل لهذه المذكرة فى [المنار] جـ ٥ مجلد ٢٩ ص ٣٢٥ ـ ٣٣٥ ـ عدد ٣٠ ربيع الأول ١٣٤٧ هـ ـ ١٤ سبتمبر ١٩٢٨ م ـ ولقد نشرت ـ كذلك ـ فى [الأهرام] فى ٥ ، ٧ أغسطس ١٩٢٨

انظرها فى ملحق هذه الدراسة

ـ من خارج الأزهر ومن داخله ـ اضطر الشيخ إلى الاستقالة في ٦ جماد أول ١٣٤٨ هـ ـ ١٠ أكتوبر ١٩٢٩ م ..

لكن طلاب الأزهر ـ وعلماء التيار التجديدي فيه ـ انخرطوا ـ لعدة سنوات ـ في المظاهرات والإضرابات والاعتصامات ـ حتى سميت الثورة الأزهرية الكبرى .. وتعرض الأزهر ابانها إلى قمع الحكومات المستبدة ـ مثل حكومة إسماعيل صدقي باشا [١٢٩٢ ـ ١٣٦٩ هـ ـ ١٨٧٥ ـ ١٩٥٠ م] ـ التي فصلت العديد من علماء الأزهر وطلابه .. حتى اضطرت هذه الحكومات ـ في النهاية ـ إلى الرضوخ لهذه " الثورة " فعاد الشيخ المراغي ثانية إلى مشيخة الأزهر ظافرا ومنتصرا ـ في ٢٣ محرم ١٣٥٤ هـ ـ ٢٧ إبريل ١٩٣٥ م .. فشرع في تنفيذ مشروعه الإصلاحي ، الذي تخطى به الأزهر أعناق القرون ، ليصبح حاضرا ومؤثرا في مجتمع القرن العشرين ..

لقد حقق الشيخ المراغي أغلب المقاصد التي تحدثت عنها " مذكرته " لإصلاح الأزهر .. في التنظيمات .. وفي مناهج التدريس .. وفي الانفتاح على تراث عصر الازدهار لحضارة الإسلام .. والاستفادة من ثمرات التجديد في العصر الحديث ..

كذلك ضمن بقاء الأزهر مستقلا عن التبعية للسلطة السياسية للدولة .. وأيضا استعاد للأزهر كثيرا من الاختصاصات التي سبق وسلبتها منه " الدولة " .. فدعم ذلك من استقلال هذا المعهد العتيد ..

ولأن الشيخ المراغي كان واحدا من عظماء العلماء في القرن العشرين ، لم تنسه نشوة النصر عندما عاد إلى المشيخة ١٩٣٥ م ، ذكر فضل أستاذه الشيخ محمد عبده ، إمام الدعوة إلى إصلاح الأزهر في العصر الحديث .. فقال الشيخ المراغي في الخطاب الذى ألقاه في الاحتفال بعودته إلى المشيخة :

" .. ومن الحق ، أيها السادة ، علينا ألا ننسى في هذه المناسبة ، والحديث حديث الأزهريين ذلك الكوكب الذى انبثق منه النور الذى نهتدى به في حياة الأزهر العامة ، ويهتدى به علماء الأقطار الإسلامية في فهم روح الإسلام وتعاليمه ، ذلك الرجل الذى نشر الحياة العلمية والنشاط الفكرى ، ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم ، وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها ، وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ومكارم الأخلاق ، ذلك الرجل الذى لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته ، ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن في التاريخ . ذلك هو الأستاذ الإمام (محمد عبده) قدس الله روحه وطيب ثراه ، وقد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملة .

ومن الوفاء ، بعد مضى هذه السنين ، ونحن نتحدث عن الأزهر ، أن نجعل لذكراه المكان الأول في هذا الحفل ، فهو مشرق النور ،

وباعث الحياة ، وعين الماء الصافيــــة التـــى نلجــأ إليـــها إذا اشــتدت الظمأ ، والدوحة المباركة التى نأوى إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير "[2] .

هكذا تحدث الشيخ العظيم ــ محمد مصطفى المراغى ــ فى لحظـــة الانتصار ــ عن أستاذه العظيم الشيخ محمد عبده .. وعن ريادته لميـــدان إصلاح الأزهر .. والإصلاح الإسلامى على امتداد عالم الإسلام واصفـــا إياه بأنه : " الكوكب الذى انبثق منه النور الذى نهتدى به فى حياة الأزهر العامة . ويهتدى به علماء الأقطار الإسلامية فى فـــهم روح الإســـلام وتعاليمه " ..

وبهذا القبس من الخلق العظيم استطاعت عبقرية الشيخ المراغـــى أن تنجز ــ فى إصلاح الأزهر الشريف ــ ما عجز عنه الكثـــيرون ــ مـــن السابقين واللاحقين ! ــ .

---

(٢) [المنار] جـ ٢ المجلد ٣٥ ص ١٣٩ ــ عدد ٢٩ ربيـــع الآخــر ١٣٥٤ هـــــ ــ ٣٠ يوليو ١٩٣٥ م ــ وانظر خطاب الشيخ المراغى كاملا فى ملحق هذه الدراسة ...

- ٤ -

عالمية الإصلاح الدينى

ولأن القرآن الكريم قد دعا جميع المؤمنين بجميع الشرائع السماوية إلى الاجتماع على سواء : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[١].

لأن رسول الإسلام وخاتم النبيين والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ قد صور أهل هذه الشرائع فى صورة الأخوة المنحدرين من أب واحد ــ هو دين الله الواحد ــ ومن أمهات متعددات ــ لتمايز الشرائع الدينية فى إطار الدين الواحد ــ فقال : [الأنبياء أولاد علات . أمهاتهم شتى ودينهم واحد][٢].

لهذه الحقائق الإسلامية ــ فى الإخاء الدينى .. والرسالة الإنسانية بين المتدينين بالديانات السماوية طمحت مدرسة الإحياء والتجديد إلى مد أواصر الإخاء الدينى والرسالة الإنسانية والعالمية إلى ما وراء حدود مذاهب الإسلام .. فتحدث رائد هذه المدرسة جمال الدين الأفغانى عن اتفاق الديانات السماوية فى المبدأ والغاية .. وعن أن رجال هذه الأديان .

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد .

المتاجرين بها ، هم الذين حالوا بين أهل هـذه الأديـان وبين التقارب والالتقاء .. فقال :

" إن الأديان الثلاثة : الموسوية ، والعيسوية ، والمحمدية ، على أتم الاتفاق في المبدأ والغاية ، وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية .

وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير ، أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها ، وأن بـهذا الاتحاد يكون البشر قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة .

ولكن ، لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديـان الـهوات العميقة ، وأولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة " حانوت " . وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة ، ورأس مال تلك التجارات ما أحدثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية ، على حد قول الشاعر :

قد يفتح المرء حانوتا لمتجره

وقد فتحت لك الحانوت في الدين

صيرت دينك شاهينا تصيد به

وليس تفلح أصحاب الشواهين

علمت أن أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة ونبذ الاختلاف ، وإثارة أفكار الخلق ، بلزوم الائتلاف ، رجوعا إلى أصول الدين الحقة . فذلك الرجل هو هو يكون عندهم قاطع أرزاق المتجرين في الدين .

وهو هو فى عرفهم : الكافر ، الجاحد ، المارق ، المخردق ، المهرطق ، المفرق .. إلخ .. إلخ " [1] .

وعلى هذا الدرب ، شارك الإمام محمد عبده ــ فى بيروت إبان منفاه فى تأسيس جمعية " للتأليف والتقريب بين الأديان السماوية الثلاثة ، وإزالة الشقاق بين أهلها ، والتعاون على إزالة ضغط أوروبة عن الشرقيين ، ولا سيما المسلمين منهم ، وتعريف الافرنج بحقيقة الإسلام " [2] .

وكانت هذه الجمعية ــ السرية ــ تنطلق من " الجامع الإبراهيمى " لهذه الديانات الثلاث .. ومن التوحيد فى الألوهية .. ومن رفض عبادة القديسين والأحبار والرهبان .. ومن منظومة القيم والأخلاق التى تتفق فيها وعليها هذه الديانات " [3] .

" فلما جاء الشيخ المراغى ــ أنجب تلاميذ هذه المدرسة الإحيائية الإصلاحية ــ وحمل راية الإصلاح الدينى فى القرن العشرين ، امتدت الآفاق بجهوده الإصلاحية إلى هذا الميدان .. ميدان الزمالة الإنسانية وضرورة تعاون رجالات هذه الديانات على ما فيه مصلحة المتدينين بها " .

---

(١) الأفغانى [الأعمال الكاملة] جـ ١ ، ص ٧٠ ، دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة ، طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٩م .

(٢) رشيد رضا [تاريخ الأستاذ الإمام] جـ ١ ، ص ٨١٩ ، ٨٢٠ ــ طبعة القاهرة ١٩٣١م .

(٣) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨٢٠ ــ ٨٢٩ .

فإبان مشيخته للأزهر ، دعى الأزهر إلى حضور مؤتمر "تاريخ الأديان الدولي السادس" المنعقد بمدينة "بروكسل" في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٥م ــ جمادى الثانية ١٣٥٤هـ. فقبل الأزهر الدعوة ، وأوفد إلى المؤتمر كلا من الشيخ/ مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ــ١٣٦٦هـ ــ ١٨٨٥ــ ١٩٤٦م] والشيخ أمين الخولي [١٣١٣ــ ١٣٨٥هـ ــ ١٨٩٥ــ ١٩٦٦م] الذي قدم إلى المؤتمر بحثًا نفيسًا وفريدًا عن "صلة الإسلام بإصلاح المسيحية" . وبعد عودته من المؤتمر ، كتب الشيخ المراغي لهذا البحث تقديماً علميًا ضافيًا ، وطبع سنة ١٩٣٩م [1] .

وفي العام التالي دعى الشيخ المراغي لحضور هذا المؤتمر ــ في دورته السابعة ، المنعقدة "بلندن" في ١٣ ربيع ثاني ١٣٥٥هـ ــ ٣ يونيو ١٩٣٦م [2] . ولما حالت مشاغله ــ في مشيخة الأزهر ــ بينه وبين السفر لحضور المؤتمر كتب بحثًا عن " **الزمالة الإنسانية والأخوة العالمية** بين أهل الديانات السماوية ، وعهد بإلقائه في المؤتمر إلى أخيه ــ الأستاذ/ عبد العزيز المراغي ــ الذي كان يدرس دراساته العليا يومئذ في لندن ــ

---

(١) انظر الطبعة الجديدة لهذا البحث ــ في "سلسلة التنوير الإسلامي" دار نهضة مصر ٢٠٠٦م .

(٢) وحرصًا من الشيخ المراغي على التواصل مع الدائرة الإنسانية والعالمية ، أوفد الشيخ / محمود شلتوت إلى مؤتمر القانون الدولي المقارن ، في دورته الثانية ــ المنعقدة بلاهاي في جمادى الأخرة سنة ١٣٥٦هـ ــ أغسطس ١٩٣٧م ــ حيث قدم دراسة عن المسئولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية . انظر كتابنا [من أعلام الإحياء الإسلامي] ص ١٦٥ ، ١٦٦ ــ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٧م .

فترجم بحث الشيخ المراغي إلى عدد من اللغات الحيـــة .. وألقي فـي المؤتمر ..

وفي هذا " البحث ــ الوثيقة " طرح الشيخ المراغي رؤيتــه للإخـــاء الديني والزمالة الإنسانية والعالمية .. مؤكدا على أن نقطة البدء في هــــذا الطريق هي اجتماع رجالات هذه الأديان على هذا الإخاء ، ووضعه فـــي الممارسة والتطبيق ، ثم دعوة أتباعهم إلى السير على هذا الطريق .

ونحن عندما نقرأ ــ اليوم ــ هذا " البحث ــ الوثيقة " نجد أنفسنا أمام :

ــ نص ينم عن فيلسوف ديني ــ اجتماعي .

ــ نص محكم ، يحار المرء ماذا يقتبس منه ؟ وماذا يدع ؟..

ــ نص يؤكد على أن الزمالة العالمية هي فطرة إنسانية .. وعلـى أن عوامل التفرق هي غرائز حيوانية ..

ــ وينبه على أن التدين هو الدواء الناجع لهذا التفرق ..

ــ وعلى أن المأمول ليس " المثالية الطوباويـــة " وإنمـــا الإصـــلاح الواقعي الذي " يلطف " الأجواء ، و" يقلل " الشرور " ، ويحقق " التقارب " بين الأنظار ، و" يدني " من الإخاء الإنساني ..

ــ ويحدد أن نقطة البدء هي اجتماع رجال الدين على تحقيق الزمالـــة بينهم ..

ــ كما ينبه على خطر وأهمية " المثقفين المستنيرين " الذين اســـتبدلوا العلم والفلسفة بالدين .. وضرورة العمل على كسبهم للشعور الديني ، لأنهم أقدر على فهم ما في الأديان من معان روحية سامية .

ــ ويؤكد على أن العقل هو موضع الشرف وموطن العزة والكرامة .

ـــ وعلى أن الإيمان لا يحل فى القلب بالإكراه .

ـــ وعلى أن العلم لا ينال إلا بالدليل .

ـــ وعلى خطر الشهوات الجامحة ، والإباحية التى يئن منها العقلاء .

ـــ وعلى خطأ استعارة أسماء كاذبة من مثل مصطلحات " المدنيـــة " و" النظام " و " الحرية " ، لإضفائها على الشرور التى تغمر العالم " .

ـــ ويقول فى هذا النص : " لقد أصابت أهل الأديان عوامل التفريق ، وأغرتهم زخارف الحياة الدنيا .. وحافظوا على الجاه والرتب .. وافـــترى بعضهم على بعض فى الدين " .

ـــ ثم يستدرك قائلاً : " لكن قبساً من النور لا يزال باقيـــاً للمتقيـــن " وهو أن الله أرحم بعباده من أن يتركهم فى هذه الشرور " .

ـــ إنه نص فريد فى فلسفة الإصـــلاح الدينى العالمى .. فيه تـــشخيص للحالة الدينية فى العالم

ـــ عوامل الصحة فيها .

ـــ عوامل المرض .

وبرنامج لتحقيق المقاصد والأغراض .. أغراض الزمالة الإنســـانية العالمية بين أهل الأديان .

ـــ لا يقف هذا البحث الفريد عند تشخيص الحالة الدينيـــة ، وتحديـــد المقاصد من الإخاء الدينى .. وإنما يحدد الوسائل المحققة لـــهذه المقـــاصد والأهداف .

* * *

وإذا نحن شئنا ــ فى هذه الدراسة ــ إشارات شاهدة من هذا النص المتميز من نصوص " فلسفة الإصلاح الدينى العالمى " . إلى هذه المعالم التى أشرنا إليها . فيكفى أن نقول إنه :

١ــ قد عرض للواقع التاريخى للصراعات التى عرفها تاريخ الأديان ، فقال :

" إن الإنسانية لتطوف بخيالها ذكريات من جلاد قاس مخيف ، أدار رحاه الخلاف الدينى . وإن الإنسانية لترنو فى خيبة إلى آلاف من الأجيال القديمة لم تدنها كثيرا من تلك الأخوة الإنسانية .. لكن التدين ، مع ذلك كله يعاوده أمله القوى ؛ ويدرك أن تلك الذكريات المروعة . وذلك البعد عن الغاية النبيلة ليسا أثرين لنقص فى طبيعة التدين أحدث ذلك كله ، بل إن ذلك فى الحق إنما سببه غلبة واقعية الحياة على مثالية التدين ، فتحكمت الحياة فى التدين ، حيث كان ينبغى أن يحكم التدين فى الحياة .

إن ما نال الإنسانية فى عصور التدين من شر ، وما قعد بها عن بلوغ الأمل المرجو فى السلام الروحى . ليس لشىء فى طبيعة التدين ، بل لانحراف فى اتجاه الشعور الدينى .

وها هو الرقى العقلى والنفسى قد حسم فعلاً غير قليل من أسباب الخلاف بين الناس لاعتبارات يسمونها دينية ، ووجه الشعور الدينى توجيها أصلح نوعا مما كان قديما ، ومن آثار ذلك هذا المؤتمر للأديان . ومحاولة أهل الدين تنمية الزمالة العالمية " .

٢ــ ثم تحدث الشيخ المراغى عن العلاج القرآنى لهذا الواقع التاريخى .. العلاج الذى يؤكد على وحدة الأصل الإنسانى .. فقال :

" لقد نبه القرآن إلى وحدة الأبوين الموجبة للتعارف والتعاون والتناصر ، والمبعدة عن التناكر والاختلاف والتخاذل ، ولم يقم وزنا لشرف البيوت وكرم الجنس ، ووضع معيارًا للتفاضل لم يعرفه الناس من قبل وهو تقوى الله ، وفي القرآن الكريم : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١) .

ـ وطلب القرآن إلى المسلمين إحسان معاشرة غيرهم من أهل الأديان والمذاهب إلا في حالة العدوان ، وفي القرآن الكريم :﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (٢) .

وقد عمل الرسول الأكرم محمد صلوات الله وسلامه عليه وخلفاؤه الراشدون بعده على وفق هذه المبادئ السامية ، حتى أبيح الإصهار إلى أهل الكتاب مع ترك الحرية للزوجة وعدم منعها من شعائر دينها " .

٣ ـ ثم طالب الشيخ المراغي بأن تكون نقطة البدء هي تحقيق زمالة رجال الدين ، وذلك :

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) الممتحنة : ٨ ـ ٩ .

" بالدعوة إلى تنمية الشعور الدينى المشترك ، وقبليا بتنمية الزمالة بين رؤساء الأديان أنفسهم ، فهم أقدر من غيرهم على إدراك هذه المعانى السامية ، وأولى الناس بأن يفهموا أن الخطر الذى يداهم الإنسانية لا يجيء من أديان المخالفين ، وإنما يجيء من الإلحاد ومن المذاهب التى تقدس المادة وتعبدها ، وتستهين بتعاليم الأديان وتعدها هزواً ولعباً " .

٤ـ ثم رسم معالم المقاصد والأغراض المبتغاة .. فقسمها إلى معنوية .. وعملية .. " فالأغراض المعنوية هى فى الإجمال : إزاحة العلل التى حالت دون تأثير الشعور الدينى فى تقريب ما بين الناس ، وهى إما تلوثه بالشوائب المفرقة ، وإما تضعفه وتحلله .

ومن هذه العوامل : ضعف الإيمان ... وأكثر ما نرى هذا بين الطبقات التى تسمى مستنيرة ويدعوها الناس مثقفة ، وسبب ذلك اصطدام الدين بالعلم التجريبى ، وما ثار بينهما من خلاف ، أو جنوح الفلسفة الأدبية إلى آراء فى الخير والفضائل العقلية ، وقفت بعض الأديان فى سبيل الموافقة عليها ، أو اتجاه الأبحاث الاجتماعية عن غايات الحياة إلى نواح لم يوافق الدين على ترسمها .

ومن الواجب أن يتعاون أهل الأديان على تقوية الشعور الدينى ؛ وإعادته يعمر القلوب ويملأ النفوس هيبة ورهبة من الله ، ورحمة ورفقاً بعباد الله ، وعلى إعزاز مركز الأديان أمام العلم وأمام الفلسفة الأدبية والفلسفة الاجتماعية ، وأمام تيارات النقد العقلى والتحرر الفكرى ، ولا شك فى أن تقوية هذا الشعور وإعزاز مركز الأديان يقوى المحبة

الإنسانية من خطر هؤلاء المستنيرين وقدرتهم حين تتحكم المادة وتقوى فيهم الرغبات غير الشريفة .

ثم إذا استطاع أهل الأديان كسب هؤلاء وإيجاد الشعور الديني في قلوبهم : فإنهم يكونون قوة فعالة في تنمية وسائط الإخاء البشري ، ذلك بقوة إحساسهم ودقة إدراكهم ، واستطاعتهم فهم ما في الأديان من معان روحية سامية مجردة من المادة يصعب فهمها على أكثر العامة ممن لم يهذبهم العلم وتنر طريقهم الفلسفة .

أما الأغراض العلمية ، فهي على الإجمال : جعل التدين أداة فعالة في تهذيب الجماعة ، وتمكين العوامل المعنوية التي تشترك فيها الأديان ، من التأثير في الحياة الإنسانية الواقعية ، وتيسير الفضائل العلمية التي تدعو إليها الأديان كلها نظما عملية ... "

٥ـ ثم أشار الشيخ المراغي ـ في بحثه هذا ـ إلى الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه المقاصد والأغراض وهي :

أ ـ إيجاد هيئة تعمل على تنقية الشعور الديني من الضغائن والأحقاد .. وذلك عن طريق :

١ـ توجيه الوعظ الديني إلى الاتجاه الإنساني .

٢ـ وجمع ما في كل دين من المعاني الإنسانية .. وإذاعتها وتعميمها بمختلف اللغات .

٣ـ وجعل الدعاية للأديان قائمة على أساس عقلي محصن .

ب ـ إيجاد هيئة لتقوية الشعور الديني ، وبخاصة في الطبقات المستنيرة .. تعنى بتأييد مركز التدين أمام البحث العلمي والتفكير الحر

ثانياً يقوم على احترام العقل .. وإعطائه حقه الكامل فى البحث النزيه التماساً للمعرفة .. مع البعد عن الوسائل الإرهابية والتضليل ، وعن الارتكاز إلى السلطة الروحية المستبدة .

ويكون لهذه الهيئة شعب ثلاث :

١ــ شعبة لتحديد ما بين العلم التجريبى والدين من علاقات ومشكلات .

٢ــ وشعبة للآراء الخلقية والفضائل .

٣ــ وشعبة لتتبع الدراسات الاجتماعية ــ كالاشتراكية والشيوعية ــ لتبين مواضع الخير والحق فيها ، ومواضع الهوى والرغبة الجامحة المفسدة لشرف الغرض من الحياة .

جـ ــ العمل على توجيه التشريع إلى تأييد الأصول العامة المشتركة للأديان .

- فيقاوم الزنا .
- وتحمى الأسرة .
- ويعاقب الكذب والغيبة والنميمة والدس والوقيعة ، ولو لم تصور فى جرائم مادية .
- وتُحد الحرية فى التمتع وأسباب الشهوات .
- وتحرم المنافسة غير الشريفة .
- وتراقب المكاسب المادية ، ويحرم الخبيث منها .
- ويعاقب على الجشع والخداع والتغرير .. إلى غير ذلك مما جاءت الأديان لاستئصال شروره وتطهير الإنسانية من أدناسه ..

د ـ العمل لتأكيد الوحدة الدينية قـولاً وعمـلاً ، وإقنـاع الأجيـال الحاضرة بأن رجال الدين لا يطمحون إلى رغبات مادية ولا إلى سـيطرة الحكم والجاه والنفوذ .. وأنهم قوّام على تفسير الناموس الإلـهي بـالحق والدعوة إليه ..

هـ ـ ويجب ألا ننسى أن تلك الوسائل ينبغي أن تكون بعيـدة عـن التدخل في أصول السياسة والاصطدام بـها ، وأن تعتمـد علـى تـأييد الجماعات وتنمية الشعور الديني والشعور بالفضيلة .

و ـ ثم ينتهي الشيخ المراغي إلى تقرير : أن في أصـول الإسـلام أقوى الدعائم التي ترتكز عليها هذه الأفكار .

- فهو يقرر أنه « لا إكراه فـي الديـن » [1] . ويقـول للرسـول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « أفـأنت تكـره النـاس حتـي يكونـوا مؤمنين » [2] .

- ويقرر أن الدعوة إلى الله تكون بالحكمة والموعظة الحسنة : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» [3] .

- ويخاطب العقل وينبه إلى التفكير فيما خلق الله .

- ويرفع العلم والعلماء .

- ويقول نبي الإسلام : [بعثت لأتمم مكارم الأخلاق] [4] .

---

(1) البقرة : ٢٥٦ .

(2) يونس : ٩٩ .

(3) النحل : ١٢٥ .

(4) رواه مالك في الموطأ .

ويقول الله تعالى : « ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر »[1] .

– ويحث على البر والرحمة ، وعلى مواساة الضعفاء والفقراء ، بل وعلى الرفق بالبهائم ، حتى جعل نفقة البهيمة الضالة واجبة فى بيت المال .. وجعل للفقراء حقًا لازمًا مفروضًا فى أموال الأغنياء ..

– وجعل الجناية على نفس واحدة جناية على الإنسانية كليا .

– ووضع قواعد صارمة للعبث بالنظام .

* * *

هكذا تفتقت العبقرية الدينية .. والفلسفية .. والاجتماعية لهذا المصلح الديني العظيم ، الشيخ مصطفى المراغي — عن هذا البحث النفيس فى الزمالة الإنسانية والعالمية ، لتحقيق الإخاء الديني بين رجالات الأديان .. ولتحقيق التعارف والتعاون بين المؤمنين بهذه الأديان .. ولإعادة هذه الأديان إلى مكانتها من هداية الإنسان وقيادة المجتمعات الإنسانية على طريق الحق والخير والرخاء[2] .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) انظر جميع ما أشرنا إليه فى نص بحث الشيخ المراغى عن : [الزمالة الإنسانية] ، بملحق هذه الدراسة .

ملحق وثائقى

١ــ إصلاح الأزهر الشريف : مذكرة الأستاذ الأكبر الشيخ / محمــــد مصطفى المراغى شيخ الأزهر .

٢ــ خطبة الأستاذ الأكبر الشيخ / محمد مصطفى المراغى فى حفــل تكريمه عند عودته لمشيخة الأزهر فى ١٩٣٥م .

٣ــ رسالة الزمالة الإنسانية : البحث الذى بعث به الأســـتاذ الأكــبر الشيخ / محمد مصطفى المراغى ــ شيخ الأزهر ــ إلى المؤتمر العــالمى للأديان ــ بلندن ــ سنة ١٣٥٥هــ ١٩٣٦م .

إصلاح الأزهر الشريف
مذكرة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى
شيخ الأزهر[١].

أوجب الدين الإسلامى على أهله أن تختص طائفة منهم بحمله وتبليغه إلى الناس ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[٢] ،وأوجب الله على نبيهﷺ أن يدعو الناس إلى السبيل الموصلة إليه ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[٣] . وقواعد العلماء كلها متفقة على وجوب السعى إلى نشر الدين وإقناع العباد بصحته وعلى وجوب حمايته من نزعات الإلحاد وشبه المضلين .

وفى الكتاب الكريم آيات كثيرة تحث على النظر فى الكون وعلى فهم ما فيه من جمال ودقة صنع ، وقد لفت النظر إلى ما فى العالم الشمسى من جمال باهر وصنع محكم ، ولفت النظر إلى ما فى الحيوانات من غرائز تدفعها إلى الصنع الدقيق والإعمال التى لها غايات محدودة ، وأشار إلى الأولين ، وحث القرآن على العلم ، وفاضل بين العلماء والجهال وأعمال السلف الصالح ، وسير العلماء لا تدع شبهة فى أن الدين الإسلامى يطلب من أهله السعى إلى معرفة كل شئ فى الحياة .

---

(١) (المنار) جـ ٥ مجلد ٢٩ ص ٣٢٥ – ٣٣٥ ـ عدد ٣ ربيع الأول ١٣٤٧ هـ ـ ٤ سبتمبر ١٩٢٨م.

(٢) التوبة ١٢٢

(٣) النحل : ١٢٥

وقد تولى سلف علماء الأمة القيام بهذه المهمة على أحسن وجه وأكمله ، فخلفوا تلك الثروة العظيمة من المؤلفات في جميع فروع العلم ، ودرسوا أصول المذاهب في العالم ودرسوا الديانات ودرسوا الفلسفة على ما كان معروفا في زمنهم ، وكتبوا المقالات في الرد على جميع الفرق ، وكانت للعقل عندهم حرمته وله حريته التامة في البحث . وكان الاجتهاد غاية يسعى إليها كل مشتغل بالعلم متفرغ له .

ولكن العلماء في القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة وظنوا أنه لا مطمع لهم في الاجتهاد فاقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث . وجهلوا ما جد في الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم ونفضوا هم على الناس فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له وأصبح الإسلام بلا حملة وبلا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين .

في الدين الإسلامي عبادات وعقائد وأخلاق ، وفقه في نظام الأسرة ، وفقه في المعاملات ، مثل البيع والرهن وفقه في الجنايات .

وقد عرض الدين الإسلامي لغيره من الأديان وعرض لعقائد لم تكن لأهل الأديان ، وأشار إلى بعض الأمور الكونية في النظام الشمسي والمواليد الثلاثة من جماد ونبات وحيوان .

وقد هوجم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السابقة . هوجم من أتباع الأديان السابقة ، وهوجم من ناحية العلم ، وهوجم من أهل القانون .

لهذا كانت مهمة العلماء شاقة جداً تتطلب معلومات كثيرة : تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها ، ومعرفة ما في الأديان السابقة ومعرفة ما يجد في الحياة من معارف وآراء ، ومعرفة طرق البحث النظري وطرق الإقناع ، وتتطلب فهم الإسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهما صحيحاً ، وتتطلب معرفة اللغة وفقهها وآدابها وتتطلب معرفة التاريخ العام وتاريخ الأديان والمذاهب وتاريخ التشريع وأطواره وتتطلب العلم بقواعد الاجتماع .

والأمة المصرية أمة دينها الإسلام فيجب عليها وهي تجاهر بذلك أن ترقى تعليمه ليرقى حملته ويكونوا حفاظا ومرشدين يدعون الناس إليه .

ولا يوجد دواء أنجع من الدين لإصلاح أخلاق الجماهير فإن العامة تتلقى أحكام الدين والأخلاق الدينية بسهولة لا تحتاج إلى أكثر من واعظ هاد حسن الأسلوب جذاب إلى الفضيلة بعمله وبحسن بصره في تصريف القول في مواضعه .

ولذلك كان الدعاة إلى الفضيلة قديما وحديثا يلجأون إلى الأديان يتخذونها وسائل للإصلاح ، بل إن كل دعاة المذاهب السياسية وحملة السيوف لم يجدوا بدا من الرجوع إلى الأديان وصبغ دعواتهم بها ، كل ذلك لأن حياة المجتمعات لا تدين لنوع من أنواع الإصلاح إلا إذا صبغ بصبغة دينية يكون قوامها الإيمان .

والأمة المصرية ، بل والأمم الشرقية جمعاء ، تدهورت أخلاقها فضعفت لديها ملكات الصدق والوفاء بالوعد والشجاعة والصبر والإقدام والحزم وضبط النفس عن الشهوات ، وضعفت الروابط بين الجماعات فلم

يعد الفرد يشعر بآلام الآخرين ومصائبهم . وقد أثرت الحياة الفردية في حياة الجماعة أثرها الضار فانحطت منزلة الأمم ورضيت من المكانة بأصغر المنازل .

وقد أرى أن الأمة المصرية وهي تريد النهوض والمجد وتتطلع إلى حياة سياسية راقية يجب عليها أن تتذكر دينها وتلتفت إلى حملة ذلك الدين فتصلح شأنهم وترقي تعليمهم ، وتضعهم في المكانة اللائقة بالمرشدين ، والتي يجب أن يكون عليها حملة الدين .

أما إهمال هذه الناحية والسعي إلى ترقية النواحي الأخرى من حياة الأمة فلا أرى أنه يوصل إلى الغرض المقصود ، فالخلق هو العمود الفقري للأمم لا يمكنها أن تنهض بغيره ، وأسهل طريق لتكوينه هو طريق الدين إذا أصلح تعليمه وهذب دعاته .

وقد كان الأزهر مصدر أشعة نور العلوم الدينية والعربية وغيرها إلى البلاد الإسلامية وقد أصابه ما أصاب غيره في الشرق من خمول وضعف فيجب على الأمة المصرية وهي تحمل راية الأمم الإسلامية أن تنقي هذا المصباح (الأزهر) من الأكدار وأن توجد له جهازاً قوياً يستمد نوره منه على طريقة تتناسب مع ما جد في العالم من أطوار في العلم وفي التفكير وفي الحوار والتخاطب وفي طرق الاستدلال والبحث . والدولة تنفق على الأزهر قدراً عظيماً من المال لا تستطيع أن تمنعه عنه ، ولا تستطيع أيضاً أن تلغي الأزهر وما يتبعه من معاهد لتوجد بدلها معاهد أخرى ، فالحاجة إلى إصلاح الأزهر واضحة لا تحتمل نزاعاً ولا جدلاً .

وإني أقرر مع الأسف أن كل الجهود التي بذلت لإصلاح المعاهد منذ عشرين سنة لم تعد بفائدة تذكر في إصلاح التعليم ، وأقرر أن نتائج الأزهر والمعاهد تؤلم كل غيور على أمته وعلى دينه . وقد صار من الحتم لحماية الدين لا لحماية الأزهر أن يغير التعليم في المعاهد وأن تكون الخطوة إلى هذا جريئة يقصد بها وجه الله تعالى فلا يبالي بما تحدثه من ضجة وصريخ فقد قرنت كل الإصلاحات العظيمة في العالم بمثل هذه الضجة .

يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة ، وأن تدرس السنة دراسة جيدة ، وأن يفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية فقهها وآدابها من المعاني وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة وأن يبتعد في تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة العربية .

يجب أن تهذب العقائد والعبادات وتنقى مما جد فيها وابتدع ، وتهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق والعقل وقواعد الإسلام الصحيحة .

يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة ، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عنها في الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء..

يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود في الدين الإسلامي ليظهر للناس يسره وقدسه وامتيازه عن

غيره فى مواطن الاختلاف ، ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها وأسباب التفرق ، وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها .

يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى ، والمواليد الثلاثة مما يتوقف عليه فهم القرآن فى الآيات التى أشارت إلى ذلك .

يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف ، وأن يضاف إلى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث فى بحث اللغات وآدابها .

يجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة ، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة (فى عصور الإسلام الزاهرة) والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية ، وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين وكل ما هو قطعى فيه محافظة تامة ، وأن تهذب الأساليب ويهذب كل ما حدث بالاجتهاد بحيث لا يبقى منه إلا ما هو صحيح من جهة الدليل وكل ما هو موافق لمصلحة العباد .

يجب أن يفعل هذا لإعداد رجال الدين لأن رسالة النبى ﷺ عامة ودينه عام ، ويجب أن يطبق بحيث يلائم العصور المختلفة والأمكنة المختلفة ، وإن لم يفعل هذا فإنه يكون عرضة للنفور منه والابتعاد عنه كما فعلت بعض الأمم الإسلامية ، وكما حصل فى الأمة المصرية نفسها إذ تركت الفقه الإسلامى لأنها وجدته بحالته التى أوصله إليها العلماء غير

ملائم . ولو أن الأمة المصرية وجدت من الفقهاء من جارى أحوال الزمان وتبدل العرف والعادة وراعى الضرورات والحرج لما تركته إلى غيره لأنه يرتكن إلى الدين الذى هو عزيز عليها .

ولست أنسى أن هذه الدراسة التى أسلفت بيانها دراسة شاقة تحتاج إلى مجهود عظيم وتحتاج إلى رجال قد لا نجدهم فى طائفة العلماء ، وتحتاج إلى مال يكافأ به العاملون ، ولكن سمو المطلب يحملنا على تذليل كل عقبة تقف فى طريقه وتوجب علينا السخاء والبذل لأننا نريد إصلاح أعز شيء على نفوس الجماهير ، ونريد بهذا الإصلاح تقويم هذه الأمة ونهوضها .

وليس من السهل أن يكلف شخص واحد بهذه الدراسة على اختلاف أنواعها ، بل من الواجب أن يفكر فى طريقة التقسيم وجعل الدراسة أقساما وأنواعا متميزة .

وبعد هذا أستطيع أن أضع أسسا إجمالية للنظام الذى أبغى أن يكون عليه الأزهر والمعاهد الدينية :

أ ــ يجب أن يقسم التعليم الدينى إلى قسمين : قسم يحدد عدد تلاميذه وترتب درجات التعليم فيه وتبين لهم حقوقهم والغايات التى تراد منهم والأعمال التى تسند إليهم من أعمال الدولة ، وهذا هو القسم الذى سيكون موضوع العناية ومكان الرجاء والأمل . وقسم لا يحدد عدده ولا ترتب درجات التعليم فيه ولا يكون له شيء من الحقوق فى أعمال الدولة ، وإنما الغاية من وجوده هى سد حاجة من يريد التفقه فى دينه ومعرفة اللغة العربية ليخرج من الجهالة إلى نور العلم ويقنع بالعلم نفسه ، وتوضع لهذا

القسم تظلم لا يقصد منها أكثر من مراقبة الأخلاق ومن تعليم أفراده تعليمـا صحيحا بعيدا عن العقائد الفاسدة موصلا إلى روح الدين موصلا إلى خلـق قويم . والقسم الأول تجعل درجات التعليم فيه ثلاثا فيكون ثلاثة أقسام :

١ــ القسم الأولى مدته خمس سنوات .

٢ــ " الثانوى " " " .

٣ــ " العالى " " " .

والتعليم فى القسمين الأولى والثانوى يكون عاما على مثال التعليم فى المدارس الأميرية ويعلم فيهما كل ما يعلم فى المدارس الأميرية مـا عـدا اللغات ، وتعلم فيهما علوم الأزهر الأصلية بالقدر المؤهل لدخول الأقسـام العالية تعليما لا يكون قوامه حفظ الدروس ، وإنما يكون قوامه فهم العلـم والمران على البحث والتدليل وتربية الملكات . وقـد يلاحظ أن المـدة لا تحتمل تعليم علوم الأزهر وتعليم ما يدرس فى المـدارس الأميريـة ، ولكن هذه الملاحظة تزول إذا لوحظ أن الطالب فى المعاهد يؤخذ فى سـن عالية عن سن التلمية فى المدارس الأميرية . ويغلب أن يكون ألم بكثير من المعلومات فى المدارس الأولية ، وأن يكون حافظا للقرآن فاستعداده وسنه يسمحان بأن يحتمل هذا المقدار الذى يراد أن يعلمه على أن الشروط التـى توضع لقبول التلاميذ فى القسم الأولى كفيلة بإبعاد مـن لا يقـوى علـى احتمال هذه الدراسة . وينقسم التعليم العالى إلى ثلاثة أقسام :

١ــ قسم اللغة العربية .

٢ــ قسم الفقه .

٣ــ قسم الإرشاد والدعوة .

ويجب أن يلاحظ أنى حيث أعرض لهذه الأقسام وحيث أبين ما يدرس فيها فأنى أضع رسما إجماليا قابلاً للتهذيب وأترك تفصيله إلى أن يحين وقت التفصيل فتؤلف له لجان فنية .

أما القسم الأول فتدرس فيه علوم اللغة من نحو وصرف ووضع وعلوم البلاغة وأدب اللغة العربية وتاريخ الآداب وعلم النفس والتربية ، ويعلم التلاميذ فيه بعض اللغات التى لها اتصال وثيق باللغة العربية ، ويدرس فيه الكتاب والسنة من حيث اتصال اللغة العربية بهما ، ومن حيث اتصالهما بآدابها .

وأما القسم الثانى فيدرس فيه الكتاب والسنة دراسة مفصلة ، وبخاصة من ناحية الأحكام الفقهية ، ويدرس أصول الفقه ، وتقارن المذاهب الإسلامية بعضها ببعض مع عرض الأدلة ، ومع التعرض للترجيح من جهة الدليل والعرف والعادة ، ومن جهة المصالح العامة ، وتقارن المذاهب الإسلامية بالقواعد العامة فى أصول القوانين ويدرس تاريخ التشريع الإسلامى وما يلزم للقاضى والمحامى من نظم القضاء والإدارة وقوانين المرافعات .

وأما القسم الثالث فيدرس فيه المنطق والتوحيد الإسلامى والأخلاق والفلسفة قديمها وحديثها ، وتاريخ الأديان والمذاهب مع مقارنتها بالدين الاسلامى ، ويدرس أدب اللغة والقرآن والسنة وبخاصة من ناحية طرق الهداية والإرشاد .

بعد ذلك أنتقل إلى الغاية من هذا التعليم النظامى ، وسأجد نفسى مضطراً إلى شىء من الإطالة فى القول : ـــ

عندما فكرت الحكومة المصرية في إنشاء مدرسة دار العلوم لتخريج أساتذة اللغة العربية في المدارس الأميرية كان العلماء في الأزهر لا يعنون إلا بدراسة القواعد وفلسفتها دراسة نظرية بعيدة عن التطبيق ، وبدراسة الألفاظ وخدمة عبارات المؤلفين ، ولا يعنون بالغاية من اللغة ولا بخدمة اللغة نفسها !! يشهد بذلك أن أسلوب الكتب المؤلفة في تلك الأيام بعيدة كل البعد عن اللغة ، ويشهد بذلك أن بعض كبار العلماء ممن شاهدناهم لم يكونوا يحسنون التعبير عن أغراضهم ولا تزال منهم بقية إلى اليوم . وكان العلماء أيضًا لا يدرسون شيئًا من العلوم العامة كالتاريخ والحساب والهندسة وتقويم البلدان . وكانوا يحافظون على ما هم عليه أشد المحافظة ولا يرون الخير إلا فيما هم فيه ، فلم تكن معلوماتهم العامة ولا طرائق تعليمهم مؤهلة لتوليهم تعليم النشء في المدارس الأميرية على النحو الحديث .

وعندما فكرت الحكومة في إنشاء مدرسة القضاء الشرعي كان الأزهر على النحو الذي وصفته ، وكان فيهم علماء يحرمون تقويم البلدان والتاريخ والحساب ، ويكتبون مقالات في الجرائد ضد هذه العلوم ، وكان ولاة الأمور يشكون من أن القضاة لا يعرفون الأرقام ولا يعرفون طرق التوثيق ولا يعرفون من العلوم العامة ما يجب أن يعرفه شخص يتولى الحكم بين الناس . وقد بدل الله هذه الأحوال وأصبح قانون الأزهر مشتملا على ضعفي العلوم التي كانت تدرس من قبل ، وأصبح يدرس فيه التاريخ الطبيعي ، وتدرس فيه الطبيعة والكيمياء ويدرس فيه الجبر والهندسة ، وقبل الأزهر في قسم تخصص القضاء الشرعي دروسًا في وظائف

الأعضاء ودرسنا في التشريح . قبل الأزهريون كل جديد وأخذوا أنفسهم له وزالت كل العقبات التي كانت من قبل ولم يبق إلا إصلاح طرق التعليم وإيجاد المعلمين الأكفاء وتوزيع العلوم على الأقسام توزيعا صحيحا . وإذا كانت هناك بقية تعترض الجديد فلم يبق لها من الشأن ما تستطيع معه أن تكون عقبة في طريق الإصلاح .

في الدولة الآن مدارس متعددة بنوع واحد من التعليم : فيها دار العلوم لتعليم اللغة . وفيها الأزهر وكل المعاهد لعلوم اللغة ، فيها مدرسة الشرعي للفقه ونظم القضاء ، وفيها الأزهر للفقه ونظم القضاء ، وفيها تجهيزية دار العلوم ، وفي الأزهر أقسام تماثلها .

تنفق الدولة على هذه المدارس جميعها ، ومن الممكن أن تقتصد في هذه النفقات ومن الممكن أن تضم هذه النفقات بعضها إلى بعض وتوحد جهودها لتخرج أمثلة أحسن من هذه الأمثلة .

في الدولة أشكال مختلفة من العلماء تخرجوا في مدارس مختلفة يحسد بعضهم بعضا ويلقم بعضهم على بعض ، ولهذا أثره في إفساد الأخلاق .

لم لا يحملنا هذا كله على التفكير في توحيد الجهود وتوحيد النفقات ونجعل قسم اللغة منبع علماء اللغة العربية لجميع مدارس الدولة والأزهر . وتخصص فرقة من قسم الفقهاء لتحل محل مدرسة القضاء فتكون ينبوعا للقضاة والمحامين والمفتين وتلغي تجهيزية دار العلوم والقضاء .

أول ما يعترضنا في هذا أن مدرسة دار العلوم أنشئت للحاجة إليها وقد حققت الآمال فيها فأخرجت للدولة علماء أحيوا اللغة العربية وآدابها بعد أن كانت تدرس وكانوا من أهم الأسباب لنشر تلك اللغة وتحبيبها إلى

الناس بينما الأزهر ضعف التعليم فيه وأصبح محلا لشكوى الأمة وشكوى أهله أنفسهم ، وليس من الحكمة بناء على الآمال في الأزهر أن نميت مدرسة محققة الفائدة ، وكذلك الحال في مدرسة القضاء .

ولكنا على الرغم من قوة هذه الحجة يمكننا التغلب عليها بمراعاة ما يأتى : قد كان الأزهر منفصلاً عن الحكومة في الماضي انفصالا تاما فلم تكن له بها علاقة إلا بمبلغ يسير في الروزنامة كان حقًا له عليها ولم يكن للحكومة إشراف عليه ، وقد تبدل الحال فصارت ميزانية الأزهر الضخمة أكثرها من وزارة المالية وبعضها من وزارة الأوقاف ، وصار لرئيس الدولة حق الإشراف عليه ، وصار مسئولا عنه أمام البرلمان ، وأصبح من اليسير على الأمة والحكومة أن تعرف فيم تنفق الأموال وبأى شيء تشتغل المعاهد وعلى أى نحو تسير .

ثم أن اندماج دار العلوم والقضاء سيفضى حتما إلى إدخال أساتذة المدرستين في الأزهر وإلى وجود الصلة التامة بينهم وبين العلماء فهذه الصلة التي من شأنها أن توجد تماس الأفكار ستنتج نتائجها الحسنة في إحسان الدراسة وستكون هناك عناصر قوية من رجال التعليم في مجالس الإدارة والمجلس الأعلى ، وفي التفتيش على المعاهد . وعلى الجملة ستوجد كل الضمانات التي تطمئن النفوس إلى أن المعاهد لا ترجع القهقرى .

هذا الذى قلته مضافًا إلى توحيد التعليم وتوحيد النفقات وتجانس العلماء في الدولة من شأنه أن يحملنا على المضى في هذا الطريق .

وتختص مدرسة القضاء على نظامها الجديد بكلمة لا بد لي من التصريح بها : لست أرجو للقضاء الشرعي خيرا من هذه المدرسة على نظامها الجديد وقد كان نظامها منذ أنشئت إلى سنة ١٩٢٣ خيرا من هذا النظام الجديد .

ذلك أننا حتى اليوم ليس لنا مراجع في القضاء إلا تلك الكتب المؤلفة في القرون الماضية وهي كتب معقدة لها طريقة خاصة في التأليف لا يفهمها كل من من يعرف اللغة العربية وإنما يفهمها من مارسها ومرن على فهمها وعرف اصطلاح مؤلفيها . وأيضا فإن العلوم الشرعية التي يحتاج إليها القاضي متشابكة يستمد بعضها من بعض ، ولا غنى للفقيه عن تعرف علوم كثيرة ترتبط بالفقه . ونظام المدرسة الجديد قطع الصلة أو أضعفها بين تلاميذ مدرسة القضاء وبين الكتب القديمة . فالتلاميذ الذين يتخرجون من التجهيزية وينقلون إلى مدرسة القضاء ليس لهم من المؤهلات ما يعدهم لتفهم تلك الكتب وإلى هضم تلك المعلومات التي وضعت لهم في البرنامج .

ولست أدافع الآن عن الكتب القديمة (بل وأرجو من الله أن يمكننا من الاستغناء عنها بأحسن منها) وإنما أدافع عن الموجود الذي قضت الضرورة بوجوده فنحن في حاجة إلى رسل بين القديم والحديث ، وأولئك الرسل يجب أن نعلمهم القديم والحديث ليخرجوا للناس حديثا جيدا فلابد لنا من علماء فيهم من القوة ما يستطيعون بها فهم تلك الكتب القديمة ومعرفة تلك الطرائق القديمة ، وفيهم من القوة ما يستطيعون معه تصوير

ذلك في أسلوب حديث . ولذلك فإنه يجب أن نراعي في النظام الحديث للأزهر عدم إهمال طرقه الأصلية في البحث وفهم الكتب .

أما المدرسة – على نظامها – منذ أنشئت إلى سنة ١٩٢٣ فإنها تستحق الثناء ولا أجد ما أعيبها به . ولكن أستطيع القول بأن تعهد الأزهر والمعاهد بالرقابة وحسن الإدارة يخرج للأمة مثل علماء تلك المدرسة أو أحسن منهم .

وقد أشير في تقرير لجنة إصلاح الأزهر سنة ١٩٢٤ إلى شيء من المقارنة بين القضاة خريجي الأزهر والقضاة خريجي المدرسة ، ويحسن الرجوع إليه لأنه يفيد فيما نحن بصدده .

وخلاصة ما أسلفته أن تندمج تجهيزية دار العلوم والقضاء ومدرسة دار العلوم في المعاهد ، على أن توضع قواعد وقتية لهذه المدارس بالنسبة لتلاميذها الموجودة فيها الآن .

أما امتيازاتهم فهي كما يأتي : –

علماء اللغة يكونون أساتذة في الأزهر والمعاهد الدينية وفي جميع مدارس الحكومة ومجالس المديريات .

علماء الفقه يكونون أساتذة العلوم الشرعية في الأزهر والمعاهد الدينية وجميع مدارس الحكومة .

وعلماء فرقة القضاء يكونون قضاة ومحامين ومفتين وأساتذة أيضا .

وعلماء الإرشاد والدعوة يكونون أساتذة في الأزهر والمعاهد ويكونون خطباء وأئمة ووعاظا ومرشدين .

أما شهادة القسم الأولى فليس لها شئ من الحقوق إلا تأهيل صاحبها لدخول القسم الثانوى ، وأما شهادة القسم الثانوى فتؤهل صاحبها للأقسام العالية وتؤهله لوظائف الكتابة فى المحاكم الشرعية والمعاهد الدينية .

وقد ينظر بعد فى علاقة هذا القسم وبعض الأقسام العالية بالجامعة المصرية إذا أراد واحد من حاملى شهاداتها دخول الجامعة المصرية فى بعض أقسامها .

وقد يصح أن يقال : لتدع دار العلوم ومدرسة القضاء تمضيان فى طريقهما وليصلح الأزهر على هذا النحو الذى أشير إليه وليس هناك ضرر فى وجود مدارس متعددة صالحة غير أن ما أشرت إليه بالنسبة لمدرسة القضاء يحملنا على عدم السكوت على نظامها الحاضر ، وما أشرت إليه بالنسبة للغاية العظيمة التى نقصدها من توحيد التعليم وتجانس العلماء ، ومن الفائدة التى تعود على المعاهد نفسها من إدخال العناصر القوية فى اللغة العربية وهم علماء دار العلوم إلى الأزهر يجعلنا نفضل طريق التوحيد على طريق التعدد .

وهناك أمر لا يصح الإغضاء عنه ، ذلك أن وجود مدارس دار العلوم والقضاء وتجهيزية دار العلوم مؤثر فى الأزهر والمعاهد من حيث الرغبة فيهما لأن نتيجة الأزهر (إذا لم يخرج قضاة ومحامين وعلماء للغة العربية فى مدارس الحكومة) تقتصر على إخراج علماء المعاهد وخطباء للمساجد وهى نتيجة غير مرغبة ، ومن شأنها أن تجعل التعليم فى المعاهد مقصورا على بعض الطبقات التى ليس لها فى الحياة آمال سامية ، وهذه الطبقات وحدها قد لا تؤمن على هذه الوديعة ، وديعة الخلق الدينى والثقافة

الإسلامية . ومن الواجب أن لا يغيب عنا ونحن نتقدم لتهذيب التعليم الديني وتقويم أخلاق الأمة أن نشجع الطبقات الراقية على التحول في هذه المعاهد لتقوم بما يطلب منها من العناية بالأخلاق .

وأمر آخر وهو أن سلب الامتيازات القديمة التي كانت للأزهر من تخريج القضاة والمحامين وعلماء اللغة يؤثر أمام الرأي العام داخل الدولة المصرية وخارجها في الأقطار الأخرى في سمعة الأزهر والمعاهد ، ومن واجب الدولة المصرية أن تحافظ على كرامة هذا المعهد القديم وأن تسرد إليه مجده فإنه واسطة اتصال وثيق بين الأمة المصرية وغيرها من الأمم ، وإذا أحسن استخدام هذه الوساطة عادت بفائدة أدبية ذات قيمة على الشعب المصري .

ومتى تم تنظيم الأزهر وأخذ مكانته فستعود إليه ثقة الأمم الإسلامية وتطلب منه علماء ومرشدين خصوصاً إذا عنيت فيه اللغات التي يحتاج إليها المرشد إذا ذهب إلى بلد من البلاد الإسلامية .

هذا هو مجمل رأيي في إصلاح المعاهد والتعليم الديني أقدمه خاليا من التفاصيل حتى إذا ما صادفه قبولا واتفق على النقط الأساسية فيه أمكن أن نشرع في تأليف اللجان الفنية التي تبحث أجزاء المشروع وأمكن بعد ذلك أن نرجع إلى القوانين لإصلاحها .

وقبل أن أختم كلمتي هذه أشير إلى أن من الممكن إيجاد كل الضمانات لحسن سير التعليم وذلك بتأليف مجالس الإدارة ومجلس الأزهر الأعلى على وجه تمثل فيه وزارة المعارف تمثيلا قويا وبأن يكون قسم التفتيش على اللغة العربية والعلوم الحديثة مشتملا على رجال يكون لوزارة

المعارف رأى فى اختيارهم ، بل ويمكن أيضًا أن يكون لوزارة المعارف مندوبون لحضور الامتحانات .

ولابد أيضا من أن أصرح بأن الأزهر لا ينبغى أن يعنى بإخراج معلمين للمدارس الأولية ، وسننظر فى إنهاء الدراسة الخاصة بالتعليم الأولى .

كما أنه لا بد لى أيضا من الإشارة إلى وجوب إلغاء قانون التخصص فقد دلت التجارب على عقم نتائجه ، ولذلك أسباب كثيرة قد يحسن عدم الإفضاء بها ، وأيضا فإن النظام الذى أشرت إليه هو نظام تقسيم الدراسة العالية سيضمن تخريج علماء لهم تفوق فى علوم الأقسام التى يدخلونها .

خطبة الأستاذ الأكبر في حفلة تكريمه (١) .

حضرات السادة الأعزاء . .

أحمد الله جل شأنه على ما أولانية من الكرامة بـــهذه المنزلـــة فـــي نفوسكم ، وأشكر لحضرات الداعين المحتفلين برهم وكرمـــهم ، وعاطفـــة الحب الفياض البادية في قولهم وفعلهم ، في شعرهم ونثرهم ، ولحضـــرات المدعوين تشريفهم واحتمالهم مشقة الحضور الذي أعربوا به عن جميـــل عطفهم وحبهم .

ويسهل على قبول هذه المنن كلها واحتمالها إذا أذنتم لي في صـــرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصي الضعيف ، واعتبارها كلها موجهـــة إلـــى الأزهر الشريف ، الذي تجلونه جميعًا وتعترفـــون لـــه بحـــق شـــيخ المعـــاهد الإسلامية في مصر وغيرها من البلاد .

ولئن دل هذا الاجتماع بالقصد الأول على غرض التكريـــم فقـد دل بالإشارة والتبع على معان أسمى من غرض التكريم :

دل على أن الأزهر خرج عن عزلته التي طـــال أمدهـــا ، ونـــهض يشارك الأمة في الحياة العامة وملابساتها ، وعزم على الاتصال بها ليفيـد

---

(١) [المنار] جـ ٢ ، مجلد ٣٥ ، ص ١٣٨ ، ١٤٢ـ عدد ٢٩ ربيع الآخر ١٣٥٤هـ ٣٠ يوليو ١٩٣٥م .

ويستفيد ، وهذه ظاهرة من ظواهر تغيير الاتجاه الفكرى الذى نشأ عن تغير طرائق التعليم فيه ، وعن شعوره بأن فى الحياة معارف غير معروفة ، القديمة يجب أن تدرس وتعرف ، وطرائق فى التعليم يجب أن تحتذى ونهتدى بها ، ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب والهندسة والتاريخ فى الأزهر وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين ، ومنذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية فى الفلسفة فى داره على شرط أن نكتم الأمر لئلا يتهمه الناس ويتهمونا بالزيغ والزندقة ، والآن تدرس فى كلية أصول الدين الفلسفة القديمة والحديثة ، وتدرس الملل والنحل ، وتقارن الديانات وتعلم لغات أجنبية شرقية وغربية .

ومن الحق أيها السادة علينا ألا ننسى فى هذه المناسبة والحديث حديث الأزهر والأزهريين ذلك الكوكب الذى انبثق منه النور الذى نهتدى به فى حياة الأزهر العامة ويهتدى به علماء الأقطار الإسلامية فى فهم روح الإسلام وتعاليمه ، ذلك الرجل الذى نشر الحياة العلمية والنشاط الفكرى ، ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم ، وعبّد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها ، وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان على العلم والتقوى ومكارم الأخلاق ، ذلك الرجل الذى لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته ، ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن فى التاريخ ، ذلك هو الأستاذ الإمام (محمد عبده) قدس الله روحه وطيب ثراه ، وقد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملة ، ومن الوفاء بعد مضى هذه السنين ونحن نتحدث عن

الأزهر أن نحتفل لذكراه المكان الأول في هذا الحفل ، فهو مشرق النور وباعث الحياة ، وعين الماء الصافية التي نلجأ إليها إذا اشتد الظمأ ، والدوحة المباركة التي نأوي إلى ظلها إذا قوي لفح الهجير .

الأزهر كما تعلمون أيها السادة هو البيئة التي يدرس فيها الدين الإسلامي الذي أوجد أمما من العدم ، وخلق تحت لوائه مدنية فاضلة ، وكان له هذا الأثر الضخم في الأرض ، فهو يوحي بطبعه إلى شيوخه وأبنائه واجبات إنسانية ، ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية ، يحسون مقصرين آثمين أمام الله وأمام الناس إذا هم تهاونوا في أدائها ، وإنهم لا يستطيعون أداء الواجب لربهم ودينهم ولسعادتهم وأنفسهم إلا إذا فهموا هذا الدين حق فهمه ، وأجادوا معرفة لغته ، وفهموا روح الاجتماع ، واستعانوا بمعارف الماضين ومعارف المحدثين فيما تمس الحاجة إليه مما هو متصل بالدين ، أصوله وفروعه ، وعرفوا بعض اللغات التي تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء والاستزادة من العلم ، وتمكنهم من نشر الثقافة الإسلامية في البلاد التي لا تعرف اللغة العربية ، هذا كله يحتاج إلى جهود تتوافر عليه وإلى التساند التام بين العلماء والطلبة والقوامين على التعليم ، ويحتاج إلى العزم ، والتصميم على طي مراحل السير في هدوء ونظام وجد ، وصدق نية ، وكمال توجه إلى الله ، وحب للعلم لا يزيد عليه إلا حب الله وحب رسوله .

وللمسلمين في الأزهر آمال من الحق أن ينتبه أهله لها :

أولاً ــ تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة فى المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى قيم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الإسلامى وتاريخ الإسلام ورجاله ، وقد كثر تطلع هذه الأمم إلى الأزهر فى هذه الأيام ووراد قاصدوه منها أفرادًا وجماعات ، واشتد طلبها لعلماء الأزهر يرحلون إليها لأداء أمانة الدين وهى بيانه ونشره .

ثانيًا : إثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الإسلام فى العلوم الدينية والعربية والعقلية ، وهى مجموعة مرتبط بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات ، وقد حاول العلماء كشفها فنقبوا عنها وبذلوا جهودًا محمودة ، وعرضوا نتائج بعضها صحيح وكثير منها غير صادق ، وعذرهم أنهم لم يدرسوا هذه المجموعة دراسة واحدة ، على أن بعضها متصل بالآخر كما هو الحال فى دراسة الأزهر ، فإذا وفق الله أهل الأزهر إلى التعمق فى دراسة هذه المجموعة دراسة قديمة حديثة ، ودراسة المعارف المرتبطة بها وأتقنوا طرق العرض الحديثة ــ أمكنهم أن يعرضوا هذه الآثار عرضًا صحيحًا صادقًا بلغة يفهمها أهل العصر الحديث ، وإذ ذاك يكونون أداة اتصال جيدة بين الحاضر والماضى ، ويطلعون العالم على ما يبهر الأنظار من آثار الأقدمين وأعتقد أن التعليم الأزهرى على النحو الذى أشرت إليه هو الذى يرجى لتحقيق الأمل وأنه مدخر لأبنائه إن شاء الله .

ثالثًا ــ عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضًا صحيحًا فى ثوب نقى خال مما أدخل عليه وزيد فيه ، ومن الفروض المتكلفة التى يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

رابعا : العمل على إزالة الفروق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة في محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرقة ، ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي يهدي إلى الحق في أكثر الأوقات ، وأن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ، ونشطت أهلها وخلقت فيهم تعصبا بساير التعصب السياسي ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها ، وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن وجعلتها شيعا في الأصول والفروع ، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف مثل ما يقال في فروع الفقه الصحيح أن ولد الشافعي غير كفء لبنت الحنفي ، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة ، وعذبات العمائم وطول اللحى ، حتى أن بعض الطوائف لا تستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين وتسعى لإنشاء مساجد خاصة .

من الخير والحق أن نتدارك هذا ، وأن يعنى العلماء بدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عبرة وتقدير ، لما فيها من هداية ودعوة إلى الوحدة ، دراسة من شأنها أن تقوي الرابطة بين العبد وربه ، وتجعل المؤمن رحب الصدر هشا باشا للحق ، مستعدا لقبوله ، عاطفا على أخوانه في الإنسانية ، كارها للبغضاء والشحناء بين المسلمين .

قد أتيم بالى تخيلت فخلت ، ولا آمالى بهذه القيمة فى سبيل رسم الحدود ، ولفت النظر إليها ، وفضل الله واسع ، وقدرته شاملة ، وما ذلك على الله بعزيز .

الآن وقد أوضحت بالتقريب آمال المسلمين فى الأزهر ، ترون أيها السادة أن العبء الملقى على عاتق الأزهر ليس هين الحمل ، فإنه فى حاجة إلى العون الصادق من كل من يقدر على العون إما بالمال أو العقل ، أو بالمعارف والتجارب ، وكل شيء يبذل فى طريق تحقيق هذه الآمال ، هين إذا أتت الجهود بهذه الثمرات الطيبة المباركة .

المؤتمر العالمى للأديان فى لندن
رسالة لحضرة صاحب الفضيلة
الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيـــخ الجامع الأزهـــر

[يقام كل سنة مؤتمر عالمى للأديان فـــى عاصمـــة مـــن كبريـــات عواصم الغرب الغرض منه دراسة مختلف الوسائل للتقريب بين الشـــعوب لحسم مادة الخلافات بينها تذرعاً لإبطال الحروب والمخاصمـــات . وقـــد دعا المؤتمر في هذه الدفعة حضرة صـــاحب الفضيلـــة الأســـتاذ الأكـــبر الإمام الشيخ محمد مصـــطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر لإلقاء خطابة فيه فى موضـــوع كيف تتقرر زمالة عالمية بين الأفــــراد المختلفـــى الأديـــان والنحل . وقد أجاب فضيلته الدعوة فأرسل للمؤتمر ببحث طريف جـــامع فى هذا الباب ، وأناب عنه فضيلة الشيخ عبد العزيز مصطفى المراغـــى شقيقه فى إلقائه ، واعتذر هو عن الحضور بنفسه لكثرة أعمالـــه ، فقبـــل المؤتمر عذره ، وقابل خطابته بما هى أهل له من الإطـــراء والإكبـــار . وها هو نص تلك الخطبة :] [1] .

---

(١) مجلة [الأزهر] جـ٥ مجلد ٧ ـ عدد جمادى الأولى ١٣٥٥هـ .

كلمة التحية للمؤتمر :

١ ــ تشرفت بالدعوة إلى حضور هذا المؤتمر من حضرات السادة القائمين بأمره ، وكنت شديد الرغبة فى شهوده وفى لقاء حضرات السادة ممثلى الأديان والمذاهب ، لكن أسباباً قوية حالت دون بلوغى هذه الأمنية ، فبعثت بكلمتى هذه وأنبت عنى فى إلقائها الشيخ عبد العزيز المراغى المدرس بكلية الشريعة وعضو بعثة فؤاد الأول بلندن ، وأنا راج منكم أن تتقبلوا أصدق عبارات التحية والإجلال ، وأصدق الأمانى لتحقيق الغرض السامى الذى تسعون إليه .

فكرة الزمالة طبيعية :

٢ ــ إن فكرة الزمالة تولدت فى الجماعات الساذجة ، وكان مظهرها تذليل عقبات الحياة فى أشكالها البسيطة ، ونمت الفكرة بنمو الجماعات ، وامتد سلطانها فشملت القبائل ، ثم نمت حتى وسعت الشعب والأمة .

واليوم وقد نشأ الشعور بحاجة الأمم بعضها إلى بعض ، ونشأ الشعور بوجوب جعل الحياة العامة فى البشرية كلها بمأمن من العواصل ، ونشأت الحاجة إلى تحقيق مطالب اقتصادية ومدنية وعلمية وروحية لا تستقل بها أمة ، بل تحتاج إلى مشاركة عامة . أخذت فكرة الزمالة تتسع وتمتد لتشمل النوع الإنسانى كله . ففكرة الزمالة ليست نظرية فلسفية ، بل هى حاجة طبيعية تولدت فى النوع البشرى منذ دور

الطفولة ، ومنذ أدرك أن ارتباط الأفراد بعضهم ببعض يساعده على قطع مفاوز الحياة بأمان ، ويعود عليه بالخير .

أسباب التفرق طبيعية :

٣ ــ ومع شعور الإنسان بالحاجة إلى الزمالة ، ومع أن العقل يقتضيها ، فقد كانت عوامل التفرق دائماً ملازمة لهذا الشعور ، لأن الإنسان لا يسيره العقل وحده ، ولكن تسيره أيضاً غرائز حيوانية ركبت فيه ، ومن هذه الغرائز حب الأثرة والغيرة ، والخوف والشك ، وقد أضيف إلى ذلك اختلاف الأديان والمذاهب ، فوجد عامل آخر للتفرق ، حتى إنه عندما يلوح للباحث أن الإخاء الإنساني المنشود تدافعه كل تلك النوازع في الإنسان ، يبدو له أنه مطلب لا ينال في هذه الحياة ، إذ يبدو ما يتحكم فيها من شرور تصرفها تصريفاً جائراً أمرجاً لا قلب له ولا وجدان .

التدين هو الدواء :

٤ ــ ولا أعتقد أن التقدم العلمي والفلسفي بقادر على التغلب على هذه العوامل وإزالة آثارها ، فقد شاهدنا أن الحروب تزيد هولاً ووحشية كلما ازداد تقدم العلم ، وأنه أعطى أسلحتها ، بل في الحق إني لا أعتقد أنه سيجئ اليوم الذي تتحقق فيه المثل العليا للبشرية ، لأنه وإن أمكن

بعامل من العوامل أن تخبو جذوة تلك النار المنبعثة من قوى الطبيعة في الإنسان فإنه لا يمكن أن تنطفئ تلك النار .

٣ ــ لكن هذه العقيدة لا يصح أن تقفنا عن البحث عن الوسائل المنظفة لتلك الغرائز والكابحة لجماحها ، بل من الخير أن نبحث عن تلك الوسائل .

والمتدين حين يعالج هذه المشكلة يجب أن يذكر أن الأديان كلها قد اعتمدت في الإنسان على أصل راسخ من غريزة التدين ، ودفعته إلى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة مدبرة حكيمة عادلة ترقب النيات وتحكم الضمائر ، وأن هذه الحياة صائرة إلى غاية من المسئولية والمجازاة ، ففي التدين من هذا التأليه والخضوع ومراقبة الإله وتوقع محاكمته عوامل ليست أقل خطراً ولا أضعف أثراً في دفع الإنسان إلى الخير والبر من تلك العوامل الأخرى الداعية إلى الشرور ، والدافعة إلى الحرب والحرص ، وإفساد شأن الجماعة الإنسانية .

وليس من شك في أن اعتقاد حياة أخرى أطول مدى من هذه الحياة ، واعتقاد أنها خير خالص يصل إليه الإنسان بالعمل الصالح ، أو شر محض يكون نتيجة حتمية لأعمال الشر ، يجعل قلب الإنسان مطمئناً راضياً إذا ساء حظه في الحياة الدنيا ، ويغير نظره إلى هذه الحياة تغييراً تاماً . ثم اعتقاد أن الخير والشر يوزلان بمقدار بعد وزنهما بميزان عادل هو ميزان القادر الحكيم ، يحفز الإنسان إلى الإكثار من عمل الخير ويبعده عن عمل الشر .

٦ ــ يجب أن يكون المهيمن على عمل الإنسان من داخل الإنسان ، وهو خوف الله . وقد يقول علماء الأخلاق إنهم إذا وصلوا إلى جعل الإنسان يحب الخير لذاته ويكره الشر لذاته ، ونبهوا الضمير الإنساني بواسطة التهذيب والتربية ، أغنى ذلك عن التدين . لكن أنى لهم ذلك ، وكيف يستطاع تهذيب الدهماء ومن تلبيهم من أول أدوار الحياة الحاجة إلى القوت ؟ فالرجوع إلى غريزة التدين أسهل . وهذا الشعور الديني إذا عمق وصلح أقوى ــ أو على الأقل ليس أضعف ــ من الخوف والطمع والمنافسة المثيرة للحروب . وهذا الشعور يرفع الإنسان إلى ما فوق الاعتزاز باللون والدم والجاه والطبقة والثروة ، وهو صالح لأن يغلب الحقد والحسد والأنانية ، وفيه من تطمين النفس ما يذل بطرها بالغنى ، ويهون عليها الفقر ، ويخفف ثورتها عليه .

وهذا الشعور يكرم النفس الإنسانية ويحدوها إلى المعرفة والحكمة ، ويكره إليها الجهل والحمق . كل تلك الآثار قد ثبت تحقيق التدين لها فعلاً لولا طوارئ أخرى . ومن هنا تقوى طماعية المتدين في قبول تلك الغاية المرجوة من الأخوة الإنسانية مهما عز ذلك أو بعد ، ولكن بقدر ما تحتمل ذلك طبيعة الإنسان .

٧ ــ نعم إن الإنسانية لتطيف بخيالها ذكريات من جلاد قاس مخيف ، أدار رحاه الخلاف الديني ، وكان فيه الشعور الديني الحاد الجاهل قوة طائشة دفعت إلى عنف وتدمير رهيب مروع . وإن الإنسانية لسترنو في خيبة إلى آلاف من الأجيال المتحدية لم تدنها كثيراً من تلك الأخوة الإنسانية ، بل لا تزال إلى اليوم يائسة منها ، لكن التدين مع ذلك

كله يعاوده أمله القوى ، ويدرك أن تلك الذكريات المروعة وذلك البعد عن الغاية النبيلة ليسا أثرين لنقص فى طبيعة التدين أحدث ذلك كله . بل إن ذلك فى الحق إنما سببه غلبة واقعية الحياة على مثالية التدين ، فتحكمت الحياة فى التدين ، حين كان ينبغى أن يحكم التدين فى الحياة ؛ وسببه محاولات أشخاص خالين من الضمائر استغلوا الشعور الدينى استغلالاً مادياً في سبيل مآرب لا تثير دفين مخزياتها ، وحسبنا أن نقول : إن ما نال الإنسانية فى عصور التدين من شر ، وما قعد بها عن بلوغ الأمل المرجو فى السلام الروحى ، ليس لشىء فى طبيعة التدين ، بل لانحراف فى اتجاه الشعور الدينى . على أن ناموس التدريج الطبيعى يفسر هذا الذى كان من ألم وخيبة بأنه حال اقتضتها درجة رقى الحياة فى تلك العهود ، وأن ما صارت وتصير إليه تلك الحياة من رقى ، يؤهلها للانتفاع بالشعور الدينى فى إدنائها من الغاية المرجوة آمنة من أخطار انحرافه أو فساده . وها هو ذا الرقى العقلى والنفسى قد حسم فعلا غير قليل من أسباب الخلاف بين الناس لاعتبارات يسمونها دينية ، ووجه الشعور الدينى توجيهاً أصلح نوعا مما كان قديماً ، ومن آثار ذلك هذا المؤتمر للأديان ، ومحاولة أهل الدين تنمية الزمالة العالمية .

٨ ــ وهذا ما جعل اغتباطى بهذا المؤتمر عظيما ، فإنه فضلا عن سعيه للبحث عن الوسائل الموصلة لتحقيق المثل العليا للإنسانية ، وهى الزمالة العالمية بين أفراد النوع الإنسانى وأممه ، فإنه بهذا السعى يحقق غرضاً أساسياً من الأغراض التى سعت إليها الأديان وعُنى بها الإسلام الذى أدين به ، فقد نبه القرآن إلى وحدة الأبوين الموجبة للتعارف

والتعاون والتناصر ، والمبعدة عن التناكر والاختلاف والتخاذل ، ولم يقم وزناً لشرف المولد وكرم الجنس ، ووضع معياراً للتفاضل لم يعرفه الناس من قبل وهو تقوى الله ، وفى القرآن الكريم : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [1] . وطلب القرآن إلى المسلمين إحسان معاشرة غيرهم من أهل الأديان والمذاهب إلا فى حالة العدوان ؛ وفى القرآن الكريم : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ [2] .

وقد عمل الرسول الأكرم محمد صلوات الله عليه وخلفاؤه الراشدون من بعده على وفق هذه المبادئ السامية ، حتى أبيح الإصهار إلى أهل الكتاب مع ترك الحرية للزوجة وعدم منعها عن شعائر دينها .

الزمالة بين رجال الدين يجب أن تسبق الزمالة العالمية :

٩ ــ وإذا ما كانت تلك الزمالة أملاً مرجو التحقيق يتداعى لتحقيقه رجال الدين ويحتفلون بذلك فى جد وحزم ، فمن الحزم إذاً أن نعود إلى هذا الشعور الدينى نستفيد من سيطرته على النفوس وسعة مداه وفطريته

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) الممتحنة : ٨ ـ ٩ .

فى البشرية ، لنبدأ منه خطتنا فى تنمية الزمالة ، وأن يتعاون أهل الأديان جميعهم بما فى الأديان من الشعور الدينى المشترك بينها ، وبما فيها من الفضائل العملية والغايات الاجتماعية الصالحة ، على تحقيق الغرض المرجو من تحقيق الزمالة وتنميتها ، وكل ما فى الأديان مما يتعلق بالمجتمع البشرى أسس صالحة ترمى إلى الخير ، وإلى أن يكون الفرد عضواً نافعاً فى المجتمع ، يعاشر أخاه بالمعروف ، ويدفع عنه النوائب ، وتجعل أواصر المودة بين أفراد الإنسان واقعة تحت الرغبات الإلهية ، مطلوبة للخالق الحكيم الذى يحيى ويميت ويرزق ، ويغيث الملهوف والمضطر ، ويعد بعد الموت حياة هنيئة لمن يعمل الصالحات .

والدعوة إلى تنمية الشعور الدينى المشترك يجب أن تسبقها الزمالة بين رؤساء الأديان أنفسهم ، فهم أقدر من غيرهم على إدراك هذه المعانى السامية ، وأولى الناس بأن يفهموا أن الخطر الذى يداهم الإنسانية لا يجئ من أديان المخالفين ، وإنما يجئ من الإلحاد ومن المذاهب التى تقدس المادة وتعبدها ، وتستهين بتعاليم الأديان وتعدها هزواً ولعباً .

الأغراض التى يسعى لها أهل الأديان :

١٠ ــ والأغراض التى أرى أن يسعى لها أهل الأديان قسمان : معنوية ، وعملية .

الأغراض المعنوية هي في الإجمال إزاحة العلل التي حالت دون تأثير الشعور الديني في تقريب ما بين الناس . وهي إما تلوثه بالشوائب المفرقة ، وإما تضعفه وتحلله .

فإن الناس بين رجلين : رجل مؤمن قوى الإيمان يصلح إيمانه لمقاومة شرور الحياة ، لكنه منحرف عن الجادة تثور فيه عناصر الحقد على المخالف والكره له والتربص به ، فهو في حاجة إلى توجيه إيمانه توجيهاً نافعاً ، وإلى تنقية ذلك الإيمان من الشوائب ، وإلى فهم معنى التدين فهماً صحيحاً خالياً من الأغراض البشرية المادية . ورجل ضعف إيمانه أو أقفر قلبه منه ، وأكثر ما نرى هذا بين الطبقات التي تسمى مستنيرة ويدعوها الناس مثقفة . وسبب ذلك اصطدام الدين بالعلم التجريبي ، وما ثار بينهما من خلاف ، أو جنوح الفلسفة الأدبية إلى آراء في الخير والفضائل العملية وقفت بعض الأديان في سبيل الموافقة عليها ؛ أو اتجاه الأبحاث الاجتماعية عن غايات الحياة إلى نواح لم يوافق الدين على ترسمها ، فكانت صلة العلم المادي والعمل الخلقي والغايات الاجتماعية بالحياة الفعلية قوة لأصحاب هذه الفروع على الدين وعلى انتهاك حرماته ؛ وكانت مقاومة رجال الدين لهؤلاء مقاومة غير رشيدة سبباً في اتساع الهوة وجرأة المخالفة جرأة عصفت بالشعور الديني في قلوب أولئك المتعلمين ، بل وأضعفت هذا الشعور عند غيرهم .

وإذا كان الأمر هكذا فمن الواجب أن يتعاون أهل الأديان على تقوية الشعور الديني ، وإعادته يعمر القلوب ويملأ النفوس هيبة ورهبة من الله ، ورحمة ورفقاً بعباد الله ، وعلى إعزاز مركز الأديان أمام

العلم وأمام الفلسفة الأدبية والفلسفة الاجتماعية ، وأمام تيارات التقدم العقلي والتحرير الفكرى . ولا شك فى أن تقوية هذا الشعور وإعزاز مركز الأديان يقى الحياة الإنسانية من خطر هؤلاء المستنيرين وقدرتهم حين تتحكم المادة وتقوى فيهم الرغبات غير الشريفة . ثم إذا استطاع أهل الأديان كسب هؤلاء وإيجاد الشعور الدينى فى قلوبهم ، فإنهم يكونون قوة فعالة فى تنمية وسائط الإخاء البشرى ، ذلك بقوة إحساسهم ودقة إدراكهم ، واستطاعتهم فهم ما فى الأديان من معان روحية سامية مجردة عن المادة يصعب فهمها على أكثر العامة ممن لم يهذبهم العلم وتنر طريقهم الفلسفة .

الأغراض العملية هى على الإجمال جعل التدين أداة فعالة فى تهذيب الجماعة ، وتمكين العوامل المعنوية التى تشترك فيها الأديان ، من التأثير فى الحياة الإنسانية الواقعية ، وتصيير الفضائل العملية التى تدعو إليها الأديان كلها نظما عملية . بذلك يقل فتك الشرور بالإنسانية فى الأمم ، وتتقارب أنظارها ، وتدنو من الإخاء الإنسانى بتقارب غاياتها وسلامة نفوسها .

١١ ــ ومما يثير العجب ويضاعف الألم ، أن أهل الأديان يحشدون جنودهم ويعدون عدتهم لمقاتلة بعضهم بعضا مقاتلة أسرفوا فيها ، وجعلتهم ضعفاء أمام عدوهم المشترك ، وسلكوا طرقا فى التناحر مخالفة لأبسط قواعد المنطق ، مما جعلهم سخرية أمام العلماء وأمام الفلاسفة ، وجعل كل جهودهم عقيمة النتائج ، فقد تركوا التأثير على الإنسان من ناحية عقله

الذي هو موضع الشرف وموطن العزة والكرامة ، واستعملوا طرق الإكراه والإغراء بالمال وغيره من الوسائل ، وركن بعضهم إلى القوى المادية للدول ، ونسوا أن الإيمان لا يحل القلب بالإكراه ، وأن العلم لا ينال إلا بالدليل ، ونسوا أن العدو جاد في انتزاعهم من مكانهم اللائق بهم ، وأن شرور العالم تغمر الإنسانية وتطغى على ما بقى في النفوس من هيبة واحترام للنظم الإلهية . وكان عليهم بدل هذا كله أن يتعاونوا على درء الخطر ، وأن يحاربوا هذه الشهوات الجامحة ، وهذه الإباحية التي يئن منها العقلاء ، وهذه العادة المستحكمة التي تجر الويلات على الآمنين بين حين وآخر ، وتستعار لها أسماء كاذبة من المدنية والنظام والحرية .

لكن ما الذي كان ينتظر غير هذا وعوامل التفريق تعمل في أهل الأديان كما تعمل في غيرهم ، وتغريهم زخارف الحياة الدنيا كما تغري غيرهم ، ويحافظون على الجاه والرتب كما يحافظ عليها غيرهم ، ويفترى بعضهم على بعض في الدين كما يفترى غيرهم .

لكن قبساً من النور لا يزال باقياً للمتقين ، وهو أن الله أرحم بعباده من أن يتركهم في هذه الشرور المتلاطمة أمواجها ، وأقدر على إيجاد الوسائل التي ترد الإنسان إلى مواطن الشرف والفضيلة ، وأنه موطن الأمل ومعقد الرجاء .

الوسائل التى تتحقق بها الأغراض :

١٢ ــ وسأعرض هنا لبعض الوسائل التى تساعد على تحقيق الغرض ، مكتفياً بالإجمال ، تاركاً التفصيل لحضرات السادة أعضاء المؤتمر ، وللابتكارات المتجددة التي ينتجها التعاون الصادق بين الأعضاء وبين محبي الإنسانية :

(أ) إيجاد هيئة تعمل على تنقية الشعور الدينى من الضغائن والأحقاد ، ولذلك وسائل ، منها :

١ ــ توجيه الوعظ الدينى فى الأديان المختلفة إلى هذا الاتجاه الإنسانى ، بالأساليب التى يقررها أهل كل دين لوعاظه .

٢ ــ جمع كل ما فى دين من المعانى الإنسانية السامية العامة : من الرفق بالبشر والبر بهم ، من حيث هم أفراد من نوع الإنسان ، دون نظر إلى الفوارق الأخرى ، وإذاعة ذلك بمختلف الوسائل فى مختلف اللغات .

٣ ــ جعل الدعاية للأديان والتبشير بها قائماً على أساس عقلى محض ، وحب للحقيقة ورغبة صادقة فى الوصول إليها ، مع البعد عن الاحتيال لذلك ، والاعتماد على وسائل غير بريئة فى ترويج الاعتقاد والإغراء به ، وقصر الجهد على إبراز ما فى الدين المدعو إليه من محاسن .

وهذه الهيئة تقوم بحسم كل إشكال أو نزاع ينشأ عن اعتداء الدعاة حسماً شريفاً نزيهاً صادق الرغبة فى المسالمة .

(ب) إيجاد هيئة تقوم بتقوية الشعور الديني ، وبخاصة في الطبقات المستنيرة ، فتعنى بتأييد مركز التدين أمام البحث العلمي والتفكير الحر ، تأييداً يقوم على احترام العقل وإعطائه حقه الكامل في البحث النزيه التماساً للمعرفة ، فيعتمد هذا التأييد على مقابلة الدليل بالدليل ، وعلى الإقناع بطرق الإقناع الصحيحة ، مع البعد عن الوسائل الإرهابية والتضليل ، وعن الارتكان على السلطة الروحية المستبدة ، وبالجملة يبتعد عن الأخطاء الماضية التي دفعت الإنسانية ثمنها باهظا مرهقا .

ويكون لهذه الهيئة شُعب ، شعبة تحدد ما بين العلم التجريبي والدين من خلاف قائم أو خلاف يجد ، وتتبع ذلك في الدوائر العلمية المختلفة ، وتتصدى لحسمه على أساس ما أسلفناه من حب للحقيقة وحرص عليها ، في لباقة لا تدع الدين يجير بما يخالف المحسوس المشاهد . وشعبة تحتفي بالآراء الخلقية وبيان الفضائل ، وما يكون من ذلك جائراً على الحياة المعنوية ، متأثراً بأغراض نهمة ومطامع شريرة ، فتبحث ذلك في عمق ودقة ، وتذاع منه الآراء المقنعة التي تنال تأييد المفكرين المخلصين ، وتحفظ على الحياة غايتها النبيلة . وشعبة تتبع الدراسات الاجتماعية وما ترسمها مذاهبها من غايات للحياة وأساليب فيها ، كالاشتراكية والشيوعية وما إلى ذلك ، تبين منها موضع الخير وناحية الحق ، وتكشف عن موضع الهوى الجامح والرغبة النهمة المفسدة لشرف الغرض من الحياة . كل ذلك يذاع في الأسلوب الصحيح ، ليسمع الناس الرأي الصالح مؤيداً بالبرهان ، موفقا بينه وبين التدين ، مراعى في كل هذا وجه الله ، ووجه الحق ، ووجه الخير للإنسانية .

١٣ ــ ونظراً لأن الإنسانية قد نالها عنتف كثير نرى (بحق أو بغير حق) أن سببه السلطة الروحية وأصحابها .

فمن الحق أن تظفر بالطمأنينة الكاملة من هذا الخطر لتــدع للتديــن ورجال الدين أن يعملوا على إسعادها . وأرى أن تؤكد الوحــدة الدينيــة قولاً وعملاً ، وأن تجد في إقناع الأجيال الحــاضرة بــأن رجــال الديــن لا يطمحون إلى رغبات مادية ولا إلى سيطرة الحكم والجــاه والنفــوذ ، وأنهم إنما يشاركون في الحياة بمقدار ما يتمكنــون مــن أداء رســالتهم الكريمة لإسعاد الإنســانية وترقيهــا ، وصيانــة معنوياتــها الملائمــة لظرفها ، وأنهم قوام على تفسير الناموس الإلهي بالحق والدعــوة إليــه ليس لهم من الأمر شيء ، ثم تحافظ على ذلك أشد المحافظــة ، وتقــوم من يشذ عن هذا المبدأ ويخالفه .

إذ ذاك تستفيد الأجيال الحاضرة والأجيال المقبلة ، وتفسح الطريــق للقوة الدينية تعمل على الإخاء الإنســاني ، وتكتســب المبــادئ الدينيــة والفضائل الخلقية والمعاني الاجتماعية السامية بوحدة الأساليب العملية التي تنصر بها المذاهب والآراء الصالحة ، سلطة عملية تمكن من السعي إلــى حماية النظم والقوانين ، ووضعها بحيث تحمل تلك الأصول الصالحة .

وكما يعمل أصحاب المذاهب الاجتماعية على توجيه التشــريع إلــى تأييد مبادئهم وقواعدهم ، يجب أن يعمل أهل الأديان على توجيه التشــريع إلى تأييد الأصول العامة المشتركة في الأديان ، فيقاوم الزنــا ، وتحمــى الأسرة ، ويعاقب على الكذب والغيبة والنميمة والدس والوقيعة ولــو لــم تصور في جرائم مادية ، وتحد الحرية في التمتع وأســباب الشــهوات ،

وتحرم المنافسة غير الشريفة ، وتراقب المكاسب المادية ، وبحرم الخبيث منها ، ويعاقب على الجشع والخداع والتغرير، إلى غير ذلك مما جاءت به الأديان لاستئصال شروره وتطهير الإنسانية من أدناسه . فساء التطبيق ، وانحرفت وجهة التدين أو ضعفت ، بحيث لم تستطع مقاومة الذين لا ضمائر لهم ، والذين خلت قلوبهم من رهبة الله ورحمة عباده .

١٤ ــ وما من شك في أن وحدة رجال الدين وفروعها المختلفة ستبتكر على يد رجالها الذين يزين الإيمان قلوبهم ، وتطمئن نفوسهم روحانية الدين الصادقة ، وسائل ناضجة فعالة لهذه الأغراض ، ولكن يجب ألا ننسى أن تلك الوسائل ينبغي أن تكون بعيدة عن التدخل في أصول السياسة والاصطدام بها ، وأن تعتمد على تأييد الجماعات وتنمية الشعور الديني والشعور بالفضيلة ، وعلى إنماء روح الكره لما يغمر العالم الآن من المفاسد والشرور التي نزلت بالإنسانية إلى مستوى منحط لا يفكر في غير قضاء الشهوات وسد حاجة الغرائز البهيمية ، وإشباع نهم القوى الشريرة ، وصفات العدوان .

١٥ ــ ذلك ما رأيته لتنمية الزمالة العالمية ، وقد قام على أساسين صحيحين ؛ وهذه الوسائل وإن كانت دقيقة فهي ممكنة وفعالة ، وإن كانت تحتاج إلى جهد ودأب طويلين ، لكن المطلب نبيل والخطب جليل ، وإن الإسلام ليمنحها تأييده القوي .

وفي أصول الإسلام أقوى الدعائم التي ترتكز عليها الفكرة ، فهو يقرر أنه لا إكراه في الدين ، ويقول الرسول صلوات الله عليه : « أفأنت

تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [1] . ويقرر أن الدعوة إلى الله تكون بالحكمة والموعظة الحسنة : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ [2] . ويخاطب العقل وينبه إلى التفكير فيما خلق الله ، ويرفع العلم والعلماء. ويقول نبى الإسلام : [بعثت لأتمم مكارم الأخلاق]، ويقول له الله تعالى : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ﴾ [3]، ويحث على البر والرحمة، وعلى مواساة الضعفاء والفقراء، بل وعلى الرفق بالبهائم ، حتى جعل نفقة البهيمة الضالة واجبة فى بيت المال ، وجعل للفقراء حقاً لازماً مفروضاً فى أموال الأغنياء ، وجعل الجناية على نفس واحدة جناية على الإنسانية ، ووضع قواعد صارمة للعبث بالنظام .

ولا أطيل عليكم أيها السادة ، فليس من غرضى ولا من غرضكم شرح أصول الإسلام وعرض مبادئه ، ولكنى بما ذكرته أردت لفت نظر حضراتكم إلى أن الغرض الشريف الذى تسعون إليه لا ينافى قواعد الإسلام العامة .

١٦ ـ وإنى أيها السادة فى ختام كلمتى هذه أبتهل إلى الله أن يؤيدكم فيما تسعون إليه من خير للإنسانية ، وأن ينير لكم الطريق ويهديكم سواء السبيل .

---

(١) يونس : ٩٩ .

(٢) النحل : ١٢٥ .

(٣) آل عمران : ١٥٩ .

محتويات الكتـــاب

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

الثمن ١٠٠ قرش

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر